الكتاب الحائز على جائزة ابن بطوطة
للرحلة المعاصرة 2017- 2018



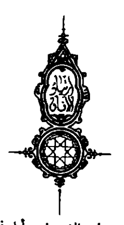
طبق الغموض

أيام في لبنان

عبد الله صديق







طبق الغموض، أيام في لبنان/ رحلات

تأليف: عبد الله صديق/ مؤلف من المغرب

الطبعة الأولى، 2018



المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المركز الرئيسيّ:

المصيطبة، شارع حبيب أبي شهلا،

بيروت، لبنان، ص. ب 11-5460

هاتفاكس 707891/2 1 961+

e-mail: mkpublishing@terra.net.lb

info@airpbooks.com

دار السويدي للنشر والتوزيع

أبو ظبي، ص. ب :44480

الإمارات العربيّة المتحدة

هاتف 6322079 2 00971

فاكس 6214311 2 00971

e-mail: alrihla@gmail.com

التوزيع في الأردنّ:

دار الفارس للنشر والتوزيع

ص. ب 9157، عمّان 11191 الأردنّ،

هاتف 5605431 6 962+ / 5605432 6 962+ هاتفاكس 5685501 6 962+

موقع الدار الإلكتروني: www.airpbooks.com

تصميم الغلاف: ناصر بخيت / السودان

الصف الضوئي: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت، لبنان

التنفيذ الطباعي: ديمو برس / بيروت، لبنان

ISBN: 978-614-419-859-9

الكتاب الحائز على جائزة ابن بطوطة
للرحلة المعاصرة -2017 2018

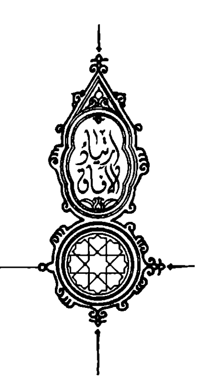


طبق الغموض

أيام في لبنان

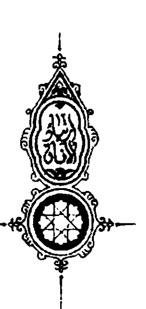


عبد الله صديق



يشرف على هذه السلسلة:

نوري الجراح



«فاجأني خليل بسؤاله لي كيف أجد بيروت؟ أجبت أن قدومي هو حلم قديم يتحقق الآن ، ولا يستطيع حالم أن يجيب عن سؤال كهذا إلا حين يستفيق» .

نص الرحلة ص٢٧

«عبرنا نصف شارع الإمام الخميني ، متوغلين في الضاحية غربا ، حيث حارة حريك ، هنا ما أعتقد منذ وقت طويل أنه قلعة محصنة ، مَرئيةٌ كلُّ بقعة فيه ومُراقَبة من حراس الحزب ، وهو انطباع حضرني من مشهد الإجراءات الأمنية التي كانت واضحة في الحواجز الفولاذية ، ومربعات الأسمنت المسلح .» .

نص الرحلة ص٤٧

«هنا ، في المخيم الفلسطيني عالم النَّبْذ الذي يُفجِّر الرغبة في الانتقامِ من العالم ، أو الانتصارِ عليه ، لا حلٌّ ثالثٌ ، هنا ينام أهل المخيم - وَككلٌّ مخيم - على سؤال ، ويستيقظون عليه ، يهربون منه ، ويفرون إليه ، يرضعونه ًللصغار ، ويفطمونهم منه .متى سنعود؟»

نص الرحلة ص٥٠

«اقتربت راجلا متهيبا لعلّي ألمح شخصاً أتحدث إليه ، لكن المخيم السوري بدا خاليا إلا من طفلة صغيرة تلعب عند عتبة خيمة . عدت إلى السيارة ، وعرفت من أبي وليد أننا سنمر أمام مخيمات كثيرة للاجئين سوريين في طريقنا نحو بعلبك .»

نص الرحلة ص٨٩

اسْتِهلال

أعلن عن جائزة ابن بطوطة للأدب الجغرافي سنة ٢٠٠٣ وتهدف إلى تشجيع أعمال التحقيق والتأليف والبحث في أدب السفر والرحلات واليوميات ، وهو ميدان خطير ومهمل ، وقد تأسست الجائزة إيماناً من «المركز العربي للأدب الجغرافي -ارتياد الآفاق» و«دار السويدي» بضرورة الإسهام في إرساء تقاليد حرّة في منح الجوائز ، وتكريساً لعرف رمزي في تقدير العطاء الفكري ، بما يؤدي بالضرورة إلى نبش المخبوء والمجهول من المخطوطات العربية والإسلامية الموجود في كنف المكتبات العربية والعالمية ، وإخراجه إلى النور ، وبالتالي إضاءة الزوايا الظليلة في الثقافة العربية عبر علاقتها بالمكان ، والسفر فيه ، والكشف عن نظرة العربي إلى الذات والآخر ، من خلال أدب الرحلة بصفته من بين أبرز حقول الكتابة في التراث العربي ، لم ينل اهتماماً يتناسب والأهمية المعطاة له في مختلف الثقافات . مع التنويه بتزايد أهمية المشروع وجائزته في ظل التطورات الدراماتيكية التي يشهدها العالم ، وتنعكس سلباً على علاقة العرب والمسلمين بالجغرافيات والثقافات الأخرى ، فالأدب الجغرافي العربي (وضمناً الإثنوغرافيا العربية) من شأنه أن يكشف عن طبيعة النظرة والأفكار التي كوّنها العرب والمسلمون عن «الآخر» في مختلف الجغرافيات التي

ارتادها رحالتهم وجغرافيوهم ودوّنوا انطباعاتهم وتصوراتهم الخاصة بهم عن الحضارة الإنسانية والاختلاف الحضاري حيثما حلّوا .

في دورتها هذه كما في دوراتها السابقة تواصل الجائزة التوقعات المتفائلة لمشروع تنويري عربي يستهدف إحياء الاهتمام بالأدب الجغرافي من خلال تحقيق المخطوطات العربية والإسلامية التي تنتمي إلى أدب الرحلة والأدب الجغرافي بصورة عامة ، من جهة ، وتشجيع الأدباء والكتاب العرب على تدوين يومياتهم المعاصرة في السفر ، وحض الدارسين على الإسهام في تقديم أبحاث ودراسات رفيعة المستوى في أدب الرحلة .

***

«سندباد الجديد» سلسلةٌ تحتفي بأدب الرحلة وتتطلع ، كما أسلفنا في سلسلة «ارتياد الآفاق» ، إلى بَعْثَ واحدِ من أعرقِ ألوانِ الكتابةِ في ثقافتنا العربية ، وذلك بتقديم نماذج معاصرة من أدبِ الرِّحلةِ العربي ، وهي سلسلة موازية للسلسلة التراثية «مائة رحلة عربية إلى العالم» التي شرعنا في إصدارها بدءاً من العام ٢٠٠١ ، في إطار مشروع «ارتياد الآفاق» .

تهدف هذه السلسلة إلى احتضان النصوص الحديثة في أدب الرحلة العربي ، وكذلك نصوص الكتاب العرب عن المكان ، والنصوص الأدبية المستلهمة من الأسفار ومدونات التراث الجغرافي العربي والإسلامي في مسعى قصده تشجيع المؤلفين على مقاربة هذا اللون من الأدب القائم على الخبرات الشخصية في العلاقة مع

المكان، والحركة عبره، والإطلال على الطبيعة والناس والعمران وما تزخر به الحياة الحديثة في الجغرافيات المختلفة من اختلاف في أحوال الإنسان، معاشِه ونشاطِه الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، وميولِه وعاداتِه وتقاليدِه وحياتِه الروحية.

معروف أن يوميات المسافرين ومدوناتهم الشخصية تشكل في الثقافات الأخرى مكتبة قائمة في ذاتها، وتعتبر كتب أدب الرحلة من أمتع المؤلفات وأكثرها رواجاً على اختلاف قيمتها الأدبية، وتنوع الموضوعات التي طرقها كتابها. وهذه الحقيقة تجعلنا نتساءل: هل هناك أدب رحلة عربي جديد، له ملامح وسمات مميزة عن تلك التي ظهرت في كتابات الرحالة العرب حتى مطلع القرن العشرين؟

مثل هذا السؤال ستجيب عنه هذه السلسلة الأولى من نوعها بالعربية. لن نستبق الإجابة، وسنترك للقراء والباحثين العرب أن يجيبوا بأنفسهم عن هذا السؤال.

على أن هذه السلسلة من شأنها أن تفتح أبواباً عدة، منها ما يفضي إلى إمكان المقارنة بين نظرة المسافر العربي المعاصر بوسائل وإمكانات حديثة وبين الرحالة العرب القدامى والوسيطين الذين تجشموا عناء السفر وصولاً إلى الآخر بإمكانات بسيطة، كانت أقصى ما أتاحته لهم ظروف زمانهم. ومن شأنها أيضاً أن تجدد دم الرغبة في استكشاف الآخر، وتردم الفجوة الكبيرة بين أدب الرحلة العربي الموضوع حتى مطلع القرن العشرين، وبين كتابات الحاضر التي عادت إلى الظهور بعد غياب لهذا اللون الأدبي استمر أكثر من نصف قرن.

نتطلع أيضاً من خلال نصوص هذه السلسلة إلى استكشاف طبيعة الوعي بالذات والآخر الذي تشكَّل عن طريق الرحلة ، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرَّحالة ، والانتباهات التي ميَّزت نظرتهم إلى الدول والناس والظواهر والأفكار . فأدب الرحلة ، على هذا الصعيد ، يشكِّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً ، ومخزناً للمشاهد والقصص والوقائع والملاحظات ، فضلاً عن كونه مادة سرديّة شائقة تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى ، ووعي يُلِمُّ بالأشياء ويحلِّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكَّرُ فيها .

الظَّاهرة الغربية في قراءة الآخر الشرقي وتأويله ، شكلت ذات يوم دافعاً ومحرضاً بالنسبة إلى أفراد من النخب العربية المثقفة ممن وجدوا أنفسهم في مواجهة صور غربيَّة لمجتمعاتهم جديدة عليهم ، وهو ما استفز فيهم العصب الحضاري ، وولَّد لديهم دوافعَ وأسباباً لشدّ الرحال نحو الآخر ، بحثاً واستكشافاً ، ليعودوا ومعهم ما يقولونه في حضارة الآخر الغربي ، ونمط عيشه وأوضاعه ، ضاربين بذلك الأمثال للناسِ ، ولينبعث في المجتمعات العربية ، وللمرة الأولى ، صراع فكري حاد تُسْتَقْطَبُ فيه القوى الحيَّةُ في المجتمع بين مؤيد للغرب موالٍ له ومتحمِّس لأفكاره وصياغاته ، وبين معادٍ لذلك الغرب ، رافضٍ له ، ومستعدّ لمقاتلته .

وهو ما أثرى المكتبة العربية بعدد من المؤلفات لأحمد فارس الشدياق ، محمد عبد الله الصفار ، محمد الحجوي ، أبو جمال الفاسي ، فرانسيس المرَّاش ، سليم بسترس ، أحمد زكي باشا ، إدوارد بك الياس ، محمد لبيب البتنوني ، جرجي زيدان ، محمد

كرد علي ، محمد عياد الطنطاوي ، الأمير محمد علي ، مصطفى فروخ ، عنبرة سلام الخالدي ، محمد رشيد رضا ، الأمير يوسف كمال ، محمد ثابت ، لويس شيخو ، طه حسين ، ومحمود تيمور ، وغيرهم .

لكن هذا اللون من الأدب سرعان ما اختفى في النصف الثاني من القرن العشرين ، تاركاً مكانه لأعمال البحث الفكري والكتابات الأيديولوجية في حمأة صراع سياسي واجتماعي عربي محتدم ، إضافة إلى ظهور الرواية وانتشارها الواسع في النصف الثاني من القرن نفسه . غفا السندباد واختفى أدب الرحلة ، ولم تعد الكتابة في هذا الميدان تشكل ظاهرة أدبية يمكن الإشارة إليها .

نطمح أن تكون هذه السلسلة من الكتب مؤشراً على يقظة السندباد .

محمد أحمد السويدي

اليوم الأول / الخميس ١٣ أبريل ٢٠١٧

١- مدينة تسكن البال

لطالما كان التفكير فيها يخلف عندي شعورا يشبه انتشاء الوصال عند المغرمين ، هي التي كان لها في مخيلتي صورة لا تشبهها صور المدن الأخرى . هل كان ذلك من فرادة كالتي في إيقاع اسمها لم أكن أجدها في الأسماء الأخرى؟ أم كأن عطرا كان يضوع في خاطري ، من حلو مشمش ، وحامض أكيدونيا ، ومالح كائن بحري ، خُلطوا جميعا بصندل غابة عذراء ، ورُشّوا على جسد امرأة في لحظة العبور من كمال الجمال الأربعيني ، نحو بهاء الطلعة الخمسينية . . تماما مثل أرزة من أرز الربِّ الذي لا يطرح ثماره إلا حين يأخذ من الدهر أربعين ربيعا .

ستختفي تشبيهات وتولد أخرى ، وتنطفئ استعارات وتوقد أخرى ، إلا واحدة ستظل مشتعلة إلى الأبد ، لأنها موقدَةٌ من شرر الرغبة الناشب في هسيس الغموض . . فهل هناك يا قارئي أجملُ أو أبدعُ من أن تكون مدينة في صورة امرأة ، أو أن تكون امرأة في صورة مدينة؟

هكذا وعيت بيروت مذ وعيتها ، وعيٌ أستعيده الآن وفي ما تبقى من ذاكرتي قصةُ حبٍّ كابدتها في مطالع مراهقتي ، أذكر من مشاعرها المتضاربة الكثيرة ذاك الذي دفعني يوما إلى أن أفكر

لفتاتي في اسم ، غير اسمها ، أطلقُه عليها ، فكان أن اخترت لها من الأسماء «بيروت» . .

بيروت التي كانت النار حينذاك تشتعل في قلبها وأطرافها وهي منتصبة ، تقاوم مثلما يقاوم تمثالٌ بمرمره الفينيقي ناراً لا تريد أن تنطفئ .

كانت الأيام والأعوام تمرّ ، وكانت صورة المدينة مُتخيلةً تتبدل وتتسع . . بيروت في صفحات الجرائد وأخبار التلفزيون الوطني ، وفي أغاني اليسار السبعيني ، في سلام فيروز ، في قصائد نزار ودرويش ، وفي سرد صنع الله إبراهيم . . وفي صور المجلة اللندنية التي كان الوالد يقتنيها بداية كل أسبوعٍ .

ممتلئةً كانت تبدو بيروت ، وفاتنةً ، مجنونةً وراقيةً ، متحررةً ووادعةً وجريئة ، حالمةً وصاخبةً وبذيئةً . . صاحبةَ تلالٍ وبحر ، جريحةً ، مطعونةً في الظهر . . لكنها لم تبد أبداً مهزومةً . . بيروتُ كانت منتصرةً في كل حالاتها ، نبيلةً ، وقابضةً على الحياة . كانت كمدن العالم الأولى ، معجونة من تراب الأزل وماء الدهر .

كان ذلك في ثمانينيات القرن الماضي . كنتُ وثلاثة أصدقاء لي نرزح تحت وطأة الضجر في حي هامشي من أحياء مدينة مهمشة ، ضجر كنا نلوذ منه بأحلام يقظة في حالات خدر خفيف سيرا فوق سكة حديد مهجورة . سائرين بدون هدف ؛ كان كل واحد يسرد لنا من حلم يقظته رحلةً إلى مدينة بعيدة ، يسير بنا إليها ، يرسمها لنا ، يدخلنا فيها ، يصف ألوانها وروائحها ، يشممنا عطورها ، يسقينا ماءها ونبيذها ، يذرع بنا شوارعها وساحاتها ، وهو يدندن أغنية منها أو لها ، مُختَلِقاً لنا قصة لا تنتهي وقائعها إلا

بانتهاء ليل مدينته . . هكذا إلى أن نتوقف من التعب ، نستلقي على سرير السكّة ، ننظر إلى السماء ، ندخن سجائرنا الأخيرة بمرأى من شمس غاربة ، ثم نأخذ طريق العودة ، وفي رأس كل واحد منا فائتٌ من القصة يستدركه فيما بينه وبين نفسه . نعود صامتين ، فيما تواصل سكةُ الحديد طريقها المغلق شرقا نحو الحدود مع البلد الجار الشقيق .

لمرات تكررت هذه الحادثة ، حميد كان يحلق بنا إلى نيويورك ، محمد كان يراود لنا كازابلانكا ، خالد كان يتوق بنا إلى أمستردام ، وكان (أنا) يروي بيروت .

خمسة وعشرون عاما مرت ، وجوه كثيرة صارت صُوَر ، انتصارات صغيرة وخسارات ، صفحاتٌ طُويت وأسفار ، قصصُ حبٍّ وُلدت وشاخت ، رواياتٌ كُتبت ، وأُنشدت أشعار ، أشتعلت حروبٌ ، واحترقت مدنٌ ، وتحطمت أسوار ، وانبعث من تحت ركام ذلك كله حلمُ يقظةٍ قديم ، انبعث ليتحقق .

٢- الدخول من الباب السماوي

دائما فضلت أن يكون لقائي الأول بمدينة ما من بابها البرّي ، فالوصول بالطائرة إذا لم يكن ليلاً فيحجب النظرة الأولى ؛ فهو في وضح النهار مُدْخِلُكَ لزوماً من بناية المطار . . والمطارُ - أي مطارٍ - مكانٌ عدائي بكثرة تحذيراته التي تملأ النفس بالتحفز ، وتُشعر المزاج بالرصد والمراقبة ، وتُخضع الجسد لمسارات مرسومة قسراً . وكل ذلك يفسد بكارة اللحظة البصرية الأولى ، ويعصف بدهشتها . . غير أني هذه المرة سأغير رأيي في الأمر ، وأتخلى عن

مذهبي ذاك ، وقد جربت فيما مضى أن أرى مدنا من الطائرة ؛ أجدني هذه المرة أدخل مدينة من بابها السماوي . .

لدقائق حلقت الطائرة فجرا فوق سماء بيروت قبل أن تحط في مطار رفيق الحريري . بدت المدينة من علو قريب هاجعة مستلقية بين الجبل والبحر ، تتلقى حزما من الضوء الفضي الذي كان يحيل مياه بحرها الساكنة إلى مرآة هائلة ، فيما بدا من نافذة الطائرة مرفأها البحري وعمارات الوسط الحديث ، ومباني الأطراف التي تحتفظ بصورتها السبعينية . . مرت إجراءات العبور في المطار بسلاسة لم أكن أتوقعها ، سلاسة أزاحت توجسا ظل يصاحبني منذ قررت السفر ، هكذا شعرت بدون داع أو ربما لدواع كثيرة مستبطنة .

عند مخرج المطار ركبت سيارة أجرة . رذاذ خفيف كان يغسل وجه المدينة ، وطريقها السريع نحو منطقة الحمرا ، حيث سأقيم في فندق هناك . التهيب من سرعة السائق على الطريق بدّدته دهشةُ الوارد التي غمرتني . . كذلك يتكرر معي هذا الشعور كلما دخلت بلدا للمرة الأولى من بابه البري . على جانبي الطريق السريع لم تكن عمارات بيروت شاهقة جدا ، ولم تكن الشوارع ضيقة ، لكن إحساسا بالكثافة كان يحسر البصر ويُشتِّت الانتباه ، دون أن تفقد معه النفسُ شعورها بألفة لطيفة ومفاجئة تهزُّ القلب هزّاً خفيفا . . حالةٌ من استيقاظ شعور قديم تجعلك قابلا لاستقبال الأثر من أدق التفاصيل والأشياء ، كبيرة وصغيرة . . . . شعورٌ مستبصِر ، كأنما عادت إلى ذهني صورةُ المسافة التي كانت تتبقى من مسير الفتية الأربعة ، كلٌّ إلى مدينته ، كان شعور الواصل إلى نهاية المسافة

واجدا مدينته الحلم . . لا سكة حديد توصل إلى بيروت ، لكنني وصلتها من باب يفضي إليها من سماء ما . . سماء كتلك التي كان الفتى يرعى فيها صور خيالاته وهو يحكي المدينة لصحبه مستلقيا على سرير السكة المهجورة .

كل ذاك ، وصوت فيروز من مذياع السيارة يشدو بهمسٍ ، كأنه قادم من السماء « . . وللفجر عيـــــــــــــون . . »

٣- غنيمة التيه

وصلتُ الفندق ، أكملت إجراءات الحجز ، أخذت حماما ، تناولت الفطور ، وخرجت . . كانت الشوارع القريبة شبه خالية . وضعت في جيبي خريطة كنت قد حمَّلتها من شبكة النت ، كي تكون دليلي في العـــودة إلى الفندق في حـــال تعطل بوصلتي البصرية ، أما جولتي فأردتها حرة متداعية ، سرتُ بدون هدي ، سوى ما يقرره حدسي حسب انجذابه إلى معالم المكان . أتوق إليها تلك الحالة من التيه التي ضاعت منا مع تجارب الطفولة الأولى . . حاملين الصور والخرائط ؛ صارت المدن في قبضة أيادينا ، فضاعت عذريتها ، وصرنا نتحرك كآلات مبرمجة ، نعرف سلفا الى أين نحن ذاهبون ، وما نحن صانعون في المكان . . كل سَكَنة مقررة ، وكل حركة متوقعة ، لا مفاجأة لمجهول ، ولا دهشة أمام جديد .

قادتني خطواتي عبر الشوارع التي كانت تتوازى طويلا ، وحين كانت تتقاطع ؛ كنتُ ألتقط أنفاسا أمام معالم لبنايات متبقية من زمن مختلف ، بنايات يبدو من محيطها أنها مازالت بقرميدها وحجارتها المتوردة الضاربة إلى الحمرة ، وقطع الآجر التي ترصص

واجهاتها وزوايا جوانبها ، تواجه زحفا مستمرا للإسمنت والحديد والزجاج والألمنيوم . . أعرف شبيها لهذه الآفة من أحياء كثيرة في بلدي ، تحولت تحت وطأة التوسع العمراني والتجاري ، من أحياء ذات رونق مخصوصة به ، إلى أقفاص عالية تحجب الشمس ، فعلوا بها ذلك دون أن يحسبوا حساب توسيع الشوارع ، فصارت الأحياء تجميعاً لمستطيلات عالية ، يزدحم القاطنون في طوابقها ، وتتكدس السيارات على جنبات أزقتها . . في هذا الوقت بدأت ذاكرتي تستعيد ذكرى ضجة ثقافية كانت قد خلفتها مقالة كتبها أدونيس مطالع الألفين حول بيروت . . كأن الرجل كان معه حق في بعض ما قال . . . . لا لن أكون قاسيا . . فهذه بيروت ياصديقي . . ست الصبايا ، ست بعض الدنيا أو كلها . . مينا الحبايب . . دندنتُ الأغنية الفيروزية متابعاً السير ، صارفا الذهن عن ذلك . عند نهاية شارع القلعة أين يتقاطع مع شارع صلاح الدين الأيوبي ، انعطفتُ يسارا ، فأعرضتْ لوجهي ريح صغيرة كانت تحمل رائحة البحر ، هنالك أدركت أنني كنت أسيرُ غربا . . رفعت إيقاع السير يسحبني انحدارُ الطريق نحو نهايته حيث يتقاطع مع الكورنيش . .

كان تيهَ ساعة ، لكن غنيمتي منه كانت كل هذا الأفق ، حيث يربض هذا الأزرق الفاتح المالح ، الممتد من هنا شرقا ، إلى نقطة هناك في البلد الذي جئت منه ، قريبا من مدينتي التي ولدت فيها . . هذا الأبيضُ الواحدُ المتوحِّدُ المتعدِّدُ . هذا التركيُّ الروميُّ الشاميُّ المغربيُّ . هذا المتوسطُ الأليفُ ، المتورِّطُ المتطرِّف ، الـمُقبلُ المنصرفُ ، الواسعُ اللاّسعُ ، الوديعُ البديعُ ، الفاصلُ

الواصلُ ، الهائلُ المائلُ ، الشَّرسُ القاتلُ ، الصغيرُ ، الهَرِم ، ذو الوهْج ذي المدد ، والموْجِ ذي الزَّبَد ، والأوْج مدى الأبدِ .

هذا الأبيضَ المتوسط الذي ألاحقه مذ عُمِّدْتُ فيه قبل أربعين سنة ، هناك شمالي مسقط رأسي في «وجدة» ، ولسنوات ألاحقه ، من السعيدية إلى مالقة ، فمارسيليا ، فالجزائر ، فالإسكندرية ، فسيدي بوسعيد ، فيافا . . ، لسنوات أبحث فيه عن نبوءة صغيرة وجميلة ، . . جميلةٍ جمال صبية سمَّيتُها ذات وَجْدٍ «بيروت» .

٤- الأنوار الحارسة

عدت أدراجي ، أدندن عفو الخاطر فقرة شعر حاولتها قديما :

خالقي ، أيها العلي الكامل القدرة
كأني رأيتك هناك
تخطِّط مدينةً مستلقية
يتلاطم (المحيطُ) في أحلامها
ويقبِّل (المتوسطُ) الرملَ عند أقدامها .
مدينةً موسومةً بالحروف الأولى
محروسةً بآية من نورٍ ومرمرْ

سرت في اتجاه الشمال قليلا ، ثم شرًقا حسبما أوحت لي به بوصلة دماغي الباحثة عن وجهة الفندق ، حيث سيكون علي أن ألتقي هناك بصديق لبناني ، ليساعدني في استئجار غرفة في شقة مفروشة .

تحت شمس العاشرة صباحا من الخميس الأبريلي الثاني ،

شمس كانت تظهر وتختفي بين غيمات بيضاء متناثرة ، عند منتصفً شارع الجنرال دوغول استدرت يسارا إلى الشرق ، حيث يبدأ شارع بليس ، وعلى مساحة تفوق أربعة وعشرين هكتارا ، وهي مساحة شاسعة جدا بالقياس إلى مدينة مثل بيروت ، تتفرق مباني الجامعة الأمريكية ، مبان كانت تضاف إلى المبنى الأول بين فترة وآخرى ، جاعلة من هذا الصرح كائنا معماريا ، يتعدد في وحدته المُسَوَّرَة ، التي تُقبِل على المدينة من الجنوب ، ويراقبها البحرُ من الشمال .

شارع بليس هذا ؛ يخلد اسم مؤسس الجامعة الأمريكية ببيروت ، دانيال بليس (١٨٢٣-١٩١٦) ، القس والطبيب والمستعرب لاحقا ، الذي قدم من بوسطن ، والتقط فكرة ظلت تختمر لزمن في ذهن مواطنه الذي سبقه إلى الشام ، الطبيب والفلكي والكيميائي والمستشرق النابغة ، فان ديك (١٨١٨-١٨٩٥) .

قام بليس بتأسيس الجامعة أواخر سنة ١٨٦٦ ، بعدما جمع لذلك مبلغا يفوق المائة ألف دولار ، من تبرعات من أمريكا وبريطانيا ، لتنطلق فيها دروس اللغات ، العربية والإنجليزية والفرنسية والتركية واللاتينية ، إلى جانب الرياضيات والهندسة والفلك والطبيعة والنبات والطب ، وتتخرج منها نخبة من الأعلام التي عرَّفنا إليها تاريخ النهضة العربية .

كانت فكرة إنشاء الجامعة ، التي حملت أول الأمر اسم الكلية السورية البروتستانتية ، صدى متكررا لتلك الرغبات التي لم تنقطع لدى الغرب في استكشاف الشرق ، وأصبحت في مطالع

القرن الثامن عشر تجري من طريق الإرساليات التبشيرية ، وفي هذه الحالة تحديدا كانت تلك الرغبة قادمة من الغرب الجديد (أمريكا) ، رغبة جمعت بين الاستكشاف والتبشير والتعليم وأغراض أخرى . وأثمرت هذا الصرح وأشباهه ، حيث يعود إليه جزء من الفضل في التميز الذي طبع لبنان ، وهيأ لفئات من مجتمعه العبور المبكر نحو مسلكيات حديثة لم تكن متاحة في بلدان أخرى وقتئذ ، وأبرزها مسلك تعليم البنات ، ونشر التعليم الرسمي المتدرج من الابتدائي فالثانوي فالعالي ، كل ذلك جعل البلد منبتا لكثير من المحاولات التحديثية ، التي ستشكل بمرور الوقت وعيَ نخبة مثقفة جديدة مارست التدريس والصحافة والسياسة والاقتصاد ، وحاولت اجتراح إجابات عن الأسئلة الحارقة للنهضة ، مدفوعة بطموح عال إلى الانعتاق من قيود كثيرة ظلت تثقل كاهل الشرق ، وتؤخر نهوضه .

دائما تصورت فيما اطلعت عليه من كتابات عن تاريخ النهضة في المشرق العربي أنه كان لمجيء أفواج الإرساليات ، البروتستانتية تحديدا ، تأثيرات على جوهر وشكل المسيحية الشرقية ، فهو وإن كان سببا في إضافة قطعة أخرى إلى الفسيفساء الطائفية والمذهبية في هذا الإقليم من الشرق ؛ فبفضله أيضا تعربت كثير من الرسوم والطقوس والأدبيات ، التي كانت تتم سابقا بلغاتها القديمة ، السريانية واليونانية ، ثم صارت تكتب وتلقن بلغة الضاد ، وبفضله خرجت إلى الوجود النسخة العربية الأولى المطبوعة من الإنجيل ، وبفضله أيضا انتشرت الطباعة ، واتسع ظهور كتيبات المناهج الدراسية ، التي ساهمت في انتشار

المعرفة بالعلوم الحديثة ، كما المعرفةِ بالتراث العربي . في هذه الأجواء انتشرت المدارس ، التي وإن كان معظمها يتبع طائفة ما ؛ فإنه لم يكن يغلق أبوابه في وجوه أتباع الطوائف المغايرة ، وهذا أمر بليغ في الدلالة على جرعة التنوير الديني ، الذي سينضاف إلى ما كان قد بدأ يشيع من الأفكار الإنسية ، وتلك التي كانت تُنَظِّر للإصلاح الديني والسياسي .

عبرت في ذهني كل هذه الخواطر وأنا أقف أمام مدخل الجامعة ، المرصوص من أحجار ناتئة ، تتوسطه بوابة من صخر رملي ، يزين قوسَها شباكٌ من قطع الحديد المطروق .

تظل الجامعة الأمريكية بكل بناياتها حجرا واحدا في سور لبنان الكبير ، لكنه حجر وضع في اللحظة التاريخية الفارقة ، التي ستمهد لهذا البلد طريقه نحو رسم خطوطٍ تُميِّزُه عن أمه الشام ، تُمَيِّزُه ولا تسلخه .

تابعت سيري وأنا أفكر برجال ، يرى مغربي مثلي أنهم صنعوا فرادة لهذا البلد . . الشدياق ، البساتنة ، اليازجيون ، لويس شيخو والأباء اليسوعيون ، يوسف الأسير ، فارس نمر ، يعقوب صروف ، جورجي زيدان ، شكيب أرسلان ، أمين الريحاني ، ميشال شيحا ، أيوب ثابت ، وآخرون كثر . . . تتابعت الأسماء في ذهني ، وتوقفتُ عند اسمين اثنين . . كورنيليوس فان ديك كان بحق نسيج وحده ، وفريد زمنه ، كان راهب فكر من مسك وذهب ، عاشقا للشرق ، حانيا عليه ، مُتَيَّماً بالعربية ، مأخوذا بآدابها وعلومها ، ثم دانيال بليس الذي كان رجل دين وطب وعلم ، حاملا لرؤيا في تبجيل العقل أراد لها أن تترك أثرا في المجتمع الذي اختاره كي

يعيش بين أهله ، ويوارى جثمانُه بثراه .

وحده العلي الكامل القدرة من يستطيع أن يصرف بيديه أقدارا كالتي اصطَفَتْ فان ديك وبليس ، وجاءت بهما من بلد بعيد ، ليفنيا عمريهما في محبة هذه المدينة ، الموسومة بالحروف الأولى ، المحروسة بآية من نور ومرمر .

٥- صباح في الحمرا

تابعت السير في شارع بليس ، ثم انعطفت يمينا عند شارع جان دارك ، متحيزاً إلى ظلال عماراته ذوات السبعة والثمانية طوابق ، لوهلة أدركت أني أكسر خط سيري كلما تقاطع شارع مع آخر ، كأنما صوت مُعَلِّمة الرياضيات قادما إلى الذاكرة من أمس بعيد ، يسترسل في شرح قاعدة المثلث .

– طول الضلع الثالث أصغر حتما من مجموع الضلعين الآخرين .

أو كأنما بدت لي شوارع بيروت التي أرى في هذا الصباح الأول ، خطوطا مستقيمة يقطع بعضها بعضا ، وليس لزائر في مثل ظروفي أن يُفوت رؤية أكثر ما يمكن له من المشاهد المتعددة ، في أسرع ما هو متاح له من الوقت الضيق ، فلذيذ الدهشات ما تتابعتْ قطعُه وتداخلت ، وتراكب بعضها فوق بعض ، لذلك كله كانت إشارات بوصلتي تتأرجح بين الخط المستقيم للزمن ، والخطوط التي أردتهُا متقاطعةً للمكان ، فيما هدفي واحد من ذلك كله ، هدفٌ اسمه الدهشة . أو بالأحرى تقطير الدهشة من مدينة يبدو أنها أصبحت مستغنية أو عاجزة عن أن تكون كذلك . .

كانت الشوارع وما يتفرع عنها تقدم لي صورة عن عاصمة عربية أخرى خذلتها الحداثة ، فضاع منها أكثر ما يوجب لها نعت العربية ، دون أن تحوز مقابل ذلك ما يوجب لها نعوت الحداثة . .

وخزني هذا الخاطر الأخير ، ونبهني إلى الخيط اللامرئي الفاصل بين الدهشة والخيبة ، إلى تلك المنطقة التي يَتَّحِدُ فيها هذان الشعوران . صرفت هذا الخاطر من بالي ، فانجلى مُبقيا في حلقي شعورا بالجفاف . عند أول بقالة اقتنيتُ قارورةَ ماء ، لم يكن بعد في حوزتي عملة لبنانية ، فدفعت بالدولار ، الدولار هنا عملة تداولٍ تُغنيك عن صرف العملة الوطنية . الدولار هنا بألف وخمسمائة ليرة . سرت لدقائق في شارع صوراني ، إلى أن بلغت نقطة تقاطعه مع شارع القاهرة . . هنا عنَّ خاطر جديد . . فدوناً عن أسماء الأعلام والوقائع والتواريخ ؛ يصير خاصا ومختلفا ما يكون لأسماء المدن في المدينة من الوَقْع ، كأن من وراء ذلك ترتيبٌ آخر غير الذي أرادته البلدية وهي تضع للشوارع أسماءها . . لزومٌ ميتافيزيقي يجعل الأمر أكثر من مجرد تسمية تحقق تمييزا لا بد منه . . شارع القاهرة في بيروت ، جعلني أفكر في شارع بيروت في القاهرة ، وجعلني أتساءل هل سأعثر على شارع الرباط في بيروت؟ فكرت في شارع بيروت في الرباط . عصرت ذاكرتي ، الآن أتذكره ، هو الزقاق الذي تقع فيه بناية وزارة العدل ، استطعت أن أتذكره لأني كنت قد وضعت منذ شهر ظلامة في هذه الوزارة .

خلال ذلك وصلتني رسالة قصيرة على هاتفي ، لم أخمن كثيرا صاحبها ، هو قطعا صديقي الذي ينتظرني قريبا من الفندق .

- وينك؟

- في شارع القاهرة ، ألتمس طريقي إلى ناحية الفندق .
- ممتاز . . لا تغير الوجهة . . استمر في مسيرك ، ستجدني في انتظارك مع صديق في مقهى الكوستا ، ستلمحها في طريقك عند زاوية بناية تحمل جدارية عليها رسم صباح . . أعني المطربة صباح .

هكذا نعت صديقي المكان . . ليعود صدى صوت معلمة الرياضيات وهي تتلو قاعدة أقرب مسافة بين نقطتين ، سرت في خط مستقيم ، إلى أن وصلت نهاية الشارع ، حيث يتقاطع مع شارع الحمرا ، تراءت لي واجهتا المقهى ، تقدمت أكثر . . هناك كان الوجه الباسم للشحرورة يتوسط جدارية ضخمة ، تغطي الواجهة الجانبية لعمارة من سبعة طوابق ، جدارية غرافيتي ، نَثَرَ رسامُها بلون أبيض حروفا عربية في النصف التحتي لخلفيتها المائلة إلى الأحمر الطيني ، ولوَّنَ النصفَ الأعلى للخلفية برمادي مائل إلى السواد ، وجعل وجه صباح في الوسط ملتفتا يمينا ، مكلَّلاً بهالة قريبة الشبه بتلك التي تُرسم حول رؤوس القديسين .

كانت الحروفية في الجدارية تردُّ بطريقتها على خواطري عن عروبة المدن ، وكانت بعيدا عن خاطري تنثر على شارع الحمرا الابتسامة الشهيرة التي نعرفها لوجه صباح ، وهو يحتفظ في عقده السادس بالطلة الخمسينية إياها . . كأني كنت أقول لنفسي شيئا ما . . شيئا من قبيل : ما أشبه بيروت بصباح! ، أو ما أشبه صباح بيروت!! ، سوى أن بيروت لا تموت .

٦- الذاكرة قريبة والمعنى بعيد.

من رصيف مقهى الكوستا ، كان صديقي ناجي يتابع وقفتي المتأملة قبالة الجدارية ، لوح بيده ، فالتحقت به . عرفني إلى صديقه خليل وهو مهندس وفنان تشكيلي . . طلبنا مشروبات . وأخذنا ثلاثتنا بطرفين اثنين من الحديث . منطقة الحمرا وشارعها ، ومقاهي بيروت ، التي يلم خليل بأطراف كثيرة من تاريخها وتحولاتها .

تعود تسمية المنطقة إلى عرب بني الحمرا ، حين حلوا بهذه الرقعة التي كانت خارج سور بيروت العتيق ، وكغيرها من مناطقِ كثيرة ، كانت عبارة عن مزارع وأحراش تحمل في أغلبها أسماءَ العشائر أو العائلات التي تسكنها ، حدث ذلك في مطالع القرن الخامس عشر الميلادي ، ومنذئذ تكيِّفُ المنطقةُ طبيعتها ووظائفها مع ما كانت تشهده بيروت من اتساع وتحولات ، إلى أن حل وافد جديد نهاية القرن التاسع عشر ، ليصير بؤرةً لحركة عمرانٍ مديني سيغير تدريجيا وجه المنطقة ، هذا الوافد كان مبنى الجامعة الأمريكية ، الذي ستبرز بحلوله الحاجةُ إلى مبان جديدة ، مساكن ومحلات تجارية ومطاعم ، مما سرَّع بتحويل المنطقة من أرض زراعات وأشجار إلى منطقة عمرانية ، ستشكل فيما بعد امتدادا لبيروت ، المدينة التي كانت قد بدأت تعرف توسعا أخرجها من سورها ، ومكّنها من أن تنهض إلى دورها التجاري والسياسي خلال القرن التاسع عشر ، لتدخل القرن العشرين وهي تسلك طريقها إلى نهايته ، كي تكون عاصمة لبلد جديد اسمه لبنان .

شارع الحمرا الذي سيأخذ اسمه من اسم المنطقة ، سيكتسي

أهمية جلبت له شهرة تجاوزت حدود البلد ، خصوصا خلال فترة الخمسينات والستينات من القرن العشرين ، وهي الفترة التي عرفت تدفق الاستثمارات القادمة من الخارج ، والخليج خصوصا ، وهو ما شكل عاملا إلى جانب عوامل محلية أخرى دفعت في اتجاه انتقال الشارع من زاروب ضيق إلى شارع عصري .

سيعرف شارع الحمرا عصره الذهبي في تلك الفترة المذكورة ، فترة الطفرة الاقتصادية ، والحيوية الثقافية ، والغليان الأيديولوجي ، وأكثر ما سيُذيع صيتَه هو واجهاته التجارية ، ومطاعمه ، ومسارحه ، وأرصفة مقاهيه التي كان يرتادها المثقفون من روائيين ، وشعراء ، ومشاهير الفن والسينما ، وأعلام السياسة ، صيتٌ حوّله أيضا إلى مزار سياحي . وتظل أبرز سمة طبعت هذه الرقعة من بيروت في غمرة انقسامها الطائفي قدرتُها على جمع كل ألوان الطيف اللبناني في تجربة تعايش تحت لعلعة رصاص الاقتتال الأهلي .

في غمرة هذا الطرف من الحديث فاجأني خليل بسؤاله لي كيف أجد بيروت؟ أجبت أن قدومي هو حلم قديم يتحقق الآن ، ولا يستطيع حالم أن يجيب عن سؤال كهذا إلا حين يستفيق ، ضحك من إجابتي ، ورد : سأفهم أنك شخص لبق ، يتحاشى التعبير عن خيبته من باب اللياقة . . هي الخيبة ، صح أم لا؟ ابتسمت وأجبت : كأنك تريد أن تقول على لساني جوابا يسكن وجدانك أنت . . قهقه خليل عاليا . منذ هذه اللحظة شعرت أن روحي تعرف روحه منذ زمن ، ومنذ تلك القهقهة أحببت هذا الرجل الستيني الهادئ الوسيم ، الذي روى بنبرة يخالطها غير

قليل من التحسر على تاريخ مقاهي الحمرا ، وكيف أتت على هذا التاريخ نيرانُ الحرب الأهلية ، وضمور المشهد الثقافي تحت ضغط النزوع الجماعي إلى الاستهلاك المُتباهى به .

مقهى الكوستا الذي نجا قبل ثلاثة شهور منصرمة من محاولة تفجير أقدم عليها متشدد انتحاري حاول تفجيره بحزامه الناسف ، هو وريث مقهى «الهورس شو» ، أول مقهى رصيف في بيروت ، وأحد أشهر المقاهي التي زالت ، بعد أن كانت بمثابة صالونات ثقافية للنقاش والتداول ، إلى جانب مقهى لاروندا ، والروكسي ، والمودكا ، والويمبي ، والنيغرسكو ، وكافي دو باري . لم يتبق من ذلك كله سوى أسماء تتلوها حسرة بادية في صوت خليل ، الصوت الذي كان يصدر عن ذاكرة قريبة تحاول القبض على معنى بعيد .

٧- طبق الغموض الجميل.

من مجلسنا على رصيف المقهى ، الساق على الساق ، وفي الفم طعم البنِّ الذي تهيَّجت من عبقه شهيتُنا إلى الأكل ، انطلقنا إلى مطعم على مقربة ، اختاره ناجي بعد أن شرحت له مذهبي في هذا الشأن ، وهو أني لا آكلُ في بلد إلا من مطبخه الأصيل ، ولا أشرب سوى قهوته الوطنية .

لم نسر أكثر من دقيقتين لنصل إلى مطعم واقع في زاوية فناء يتوسط مدخلَ عمارة تجارية ، عند الباب الزجاجي للمطعم تطالع الداخلَ مكتبةٌ ، «مكتبة الرَّفّ المفتوح الذي يتيح الولوج الحر المباشر إلى مصادر المعلومة» هكذا وبصوت سمعه صديقاي

استذكرت الجملة الأثيرة لدي ، تلك التي كنت أفتتح بها دورات التكوين التي كنت أشرف عليها لفائدة مسؤولي مكتبات القراءة العمومية منذ عشر سنوات خلت . أدهشني المشهد حقاً ، مشهد مسح ما تبقى من وقع النبرة المتحسرة لخليل على الحمرا ، نظرت إليه وقلت مشيرا إلى المكتبة : هذا وحده كاف للاطمئنان إلى أن في الروحِ المحطمة للمكان بقية رمقٍ مقاوم وقادر على الانبعاث .

أخذنا مكاننا في باحة داخليةٍ مفتوحة على الهواء الطلق ، رُتِّبت فيها الطاولات والكراسي ، ونُشِرت في أرجائها مظلات تقي من الشمس أو المطر ، وزُيِّن حائطها الخام بصفٍّ معلَّق من أبواب ونوافذ مستعملة . منحت للمكان امتدادا متخيلا ، وفي الأركان عرَّشت نباتاتٌ وأزهار في أصائصَ وجرارٍ ضخمة ، بدا من لمسة الديكور هاته أن وراء المطعم فكرة فنان ، اختًار لهذه السينوغرافيا اسما جميلا هو «تاء مربوطة» .

كانت عيون صديقي تتابعان دهشتي المعجبة ، ليبادرني خليل بردٍّ على جملتي السابقة : معك حق ، ربما هذا الرمق المتبقي هو ما يخفف في وجدان كثير من اللبنانيين حِدَّة الرغبة في هجر المكان .

متطلعا إلى جُلاَّس المطعم ، متفحصا سحناتهم . . خِلْطة من لبنانيين ، وسياح عرب وأوروبيين وآسيويين ، شبابا وكهولاً ، نساء ورجالا . أزواج مع أطفالهم ، وطلاب جامعات ، عجائز في أرذل العمر ، لكن في أبهى ثياب .

كانت سحنات الوجوه وصوت فيروز وسينوغرافيا المكان والأزياء توحي كلها للعين بغموض جميل في المشهد ، الهندام ذو الياقة الأنيقة ، التنورة القصيرة ، العباءة السوداء ، الحجاب التركي ،

الجينز المنحور بين الركبة والفخذ . .

بعد حين ، حضر النادل ، وعرض قائمة المأكولات ، تصفّحت مطوية القائمة ، لأجد فيها لمسة فنية أخرى كانت تجعلها ماتعة للعين ، برسوم خطوطية بالأبيض والأسود ، وفي رأسها تعبير طريف : (ة ، قهوة ، كتاب ، وناس) .

اختار صديقاي ما طاب لهما ، واخترتُ أنا طبق فتوش ، وأشياء أخرى .

حين أحضر النادل أطباق الأكل ؛ وضع أمامي طبقَ الفتوش ، وهو خُلْطَة من قطع طماطم ، وخيار ، وفجل ، وورق خس ، وبصل أخضر ، وبقدنوس ، ونعناع ، ورقاق خبز محمص ، نُثِر عليه سمّاق ، وسُقِي بصلصة من الحامض وزيت الزيتون ، ودبس الرمان . .

تعود تسمية الفتوش إلى حكاية مر عليها أكثر من قرن ونصف ، حين بغت إحدى الطوائف على أخرى ، فنزحت عائلات مسيحية من جبل لبنان إلى زحلة ، ونزلت عند عائلة تدعى آل فتوش ، فلما أولم المقيمون للنازحين ؛ انتبهوا إلى أن ضيوفهم لا يقربون اللحم ، ويكتفون من الوليمة بأكل سلطات الخضار والنبات ، وذلك من صيام شكرٍ نذروه عن نجاتهم . فأطلق المضيفون من حينه على سَلَطة الخضَار تلك ، اسمَ الفتوش .

فتوش ، طبق المذاقات المختلفة المجتمعة ، لا يبغي بعضها على بعض ، فتوش ، طبق الغموض الجميل .

٨- حجارة وقلوب.

قهوة وطنية كأنها الماس ، شربناها وغادرنا المطعم . ناجي صار مرشدي الذي أراد لي أن أرى وجها آخر لبيروت . من الحمرا عبر شارع روما ، وصولا إلى شارع كليمنصو ، المفضي الى منطقة باب إدريس ، وهو الاسم الذي يذكر بأحد الأبواب السبعة لسور بيروت الذي كان هنا قبل أن يهدم تدريجيا مع اتساع المدينة وتمدُّد أحيائها .

سرنا نحو وسط بيروت . «الوسط الذي تأخذ فيه بيروت صورتها المستحدثة ، لا صورتها المستعادة» ، هكذا نطق بها ناجي . سألته عن الفرق ، فأجاب «إن قسما كبيرا من اللبنانيين لا تروقهم كثيرا ما آلت إليه صورة هذا الجزء من المدينة ، لا شك أن مجهودا كبيرا قد بُذل ، لكنه لم يتحقق سوى ببيع بيروت لمن يدفع أكثر ، ولو على حساب أبنائها الأصيلين» .

لم أشأ أن أُتبع زفرةَ ناجي بأي سؤال أخر ، ولم يكن الحال يحتاج إلى شرح كبير ، فحكاية إعمار وسط بيروت ، يرى فيها غريب مثلي ، حكاية شركة استثمارية خاصة نالت صفقة إعادة بناء منطقة دمرتها حرب أهلية استمرت خمسة عشر عاماً . فما الذي يمكن أن يحدث ، سوى استحداث ما لم يكن ، والإبقاء على ما بعض ما يصلح أن يبقى من الكُلِّ الذي كان ، أما الذي كان هنا ولم يعد ، فسيصير صفحة أخرى من كتاب المحو الذي يعود أول سطر فيه إلى أكثر من خمسة آلاف عام ، هو عمر هذه المدينة .

نظرت إلى ناجي ثانية وقلت : ألا ترى أنه حين يكون علينا

أن نحل مشكلة ، وعيوننا على الكسب الذي نجنيه من ورائها ، فسيكون ما سننجزه هو أقل الحلول الجيدة سوءا .

في هذه القطعة من بيروت الحديثة الطراز ، الراقية جداً ، وشبه الفارغة في ذات الوقت ، الشوارعُ نظيفة جداً ، والعمارات فاخرةُ النوافذِ والشرفاتِ ، المحلاتُ التجارية في المول الكبير تعرض أحدث المنتوجات من الأزياء والعطور ، والجواهر ، والإكسسوارات التي يمكن أن يجدها المتسوق في وسط مدن كلندن ، وروما ، وباريس ، كلها مستحدثات أخذت مكان الذي كان ولم يعد هنا ، وغير بعيد عنها تظهر هنا وهناك مواقع أثرية كشفت عنها عمليات الحفر ، مواقع تقدم صورة عن أثر كان هنا ، ظهر من تحت الردم بعد قرون ، وبُعِث من جديد . في المَشهد ذاته تظهر أطلال بنايات لم يطلها الهدم بعد ، تقصف عين الناظر بنشاز بصري تبدو فيه كجثث خلفتها آلة دمار عظيمة ، يُشعر منظرُها أن الحرب الأهلية التي مر على انتهائها سبعة وعشرون عاما ، مازال عالقاً أثرُها بالمكان ، متأملا هذه المشهد هزني انتباه لم أتوقعه ، ففي مثل هذا اليوم ١٣ أبريل/ نيسان من عام ١٩٧٥ اشتعلت الحرب الأهلية اللبنانية من شرارة انطلقت من حادثة عين الرمانة . في لحظة أزال هذا الانتباه عن خاطري انطباع النشاز البصري في المكان ، وتساءلت : هل يفكر اللبنانيون وهم يعيدون إعمار عاصمتهم في ترك بعض تلك البنايات التي تحمل آثار الحرب ، كي تكون شواهد ومزارات تتعلم منها الأجيال الجديدة أنَّ التجربة كانت مدمرة حدَّ الجنون ، وفظيعة فوق التصور ، فتتعلم أنه غير مسموح لها أن تتكرر .

في مسيرنا كان صوت أجراس كنائس قريبة يصلنا أكثر كلما انحدرت بنا الطريق نحو قلب الوسط ، حيث ساحة النجمة ، الشهيرة ببرج الساعة الذي يتوسطها ، وبدا لنا في بعض الزوايا سيارات عسكرية ، وعناصر من الجيش اللبناني تنتشر في المكان ، هنا سأنتبه ثانية إلى أني دخلت هذا البلد وهو يحتفل بأول أيام الفصح المسيحي ، كان الرجال والنسوة وأولادهن بلباس أسود يعبرون الساحة نحو كاتدرائية القديس جاورجيوس للروم الأرثوذكس ، أين كانت تُرتَّل الصلواتُ وتُنشد التراتيمُ . دخلتُ الكنيسة التي كانت ملأى بالمصلين ، وبقي صديقاي في الخارج ، مستعيدا أول مرة أدخل فيها كنيسة ، كان ذلك في مدينة لاسيوتا بفرنسا ، أخذتُ أقرب مجلس ، قريبا من البوابة ، تنسمت البخور الشرقي ، وأطلقتُ عينيَّ تجولان في المكان . . المعمار والجداريات والتماثيل والشمعدانات المذهبة ، الموزاييك الأرضي ، والسقوف المقعرة الآخذة شكل أقواس تتساند فيها الحجارة ، حجر يشد حجرا في توازن إنشائي نصف دائري ، تتبعه العينُ وهو يبدأ من عمود وينتهي إلى آخر مقابل له ، ثم هذا الاختلاف الواضح في أعمار المصلين ، ونسبة الشباب منهم ، والصبايا خصوصا ، بصحبة آبائهن وأمهاتهن ، وهو أمر يُشعر بوهج المسيحية العربية والشرقية ، واستمرارها مثلما كانت أول ما ولدت هنا ، عكس الأوروبية التي تكاد تنقرض . فالكنيسة في لاسيوتا كانت شبه فارغة ذلك الأحد .

خرجنا من الكنيسة ، وسرنا في باحة خلفية لها ، تطل على موقع آثار رومانية ، مشهدٌ آخر يوحي مرة أخرى بأن بيروتات غابرة

ترقد تحت هذه الحاضرة ، من هناك يطالع الواقف مشهد الجوار المقدس ، المتساوي المساحة ، والمتماثل العلوِّ ، بين برج الكنيسة بقرميدها الأحمر ، ومآذن المسجد بقبابه الزرقاء ، كنيسة سان جورج المارونية ومسجد محمد الأمين ، يؤلفان مشهدا تتودد إليه العين وتستغربه ، بسيطا وعميقا ومخاتلا في نفس الآن . . هل هو التعايش ، أم التوافق ، أم التنافس ، أم المحاصصة؟؟ . . فكرت في الأمر وترددت أن أسأل صديقيَّ عنه . . أكملنا مسيرنا ، متبسما كنت أفكر في حوارِ بعض الحجارة في المعبدين ، قد يجعلها قلوبا ، وجوارِ بعض القلوبَ في العقيدتين ، قد يجعلها حجارة .

٩- لافتات متعددة، وشقة مفردة.

كانت الساعة قد قاربت السابعة مساء ، حين انتهت جولتنا عند رصيف شارع دمشق ، استوقفنا سيارة أجرة قادتنا في اتجاه الحمرا ، في طريقنا نحو الفندق كانت اللافتات ، معلقة على واجهات العمارات ، وأعمدة الكهرباء ، وجوانب الجسور ، تشدّ انتباه الغريب من وراء زجاج السيارة ، فيما يبدو أنها صارت بالنسبة للمقيم قطعة مألوفة حد الذوبان في المشهد . لافتاتٌ تتنافس في أحجامها وبنط خطوطها ، واحتلالها الزوايا الرئيسية والمواقع التي تجعلها مرئية ومقروءة للمجاورين والعابرين على حد سواء ، وأكثرها تستولي عليه صور زعماء سياسين ، بعضهم موتى ، وآخرون ما زالوا يُرزقون ويسترزقون .

من لافتة إلى أخرى ، يكاد يُخَيَّل إليك أنك تسمع من خلف كل لافتة أصواتَ متظاهرين يهتفون بما كتب عليها من عبارات

مسجوعة ، وغير مسجوعة . . فترى كيف أن واضعيها كأنما وضعوا علامات ترسُم الحدود على الأرض ، وكلما تقاربت المسافة بين لافتة ومنافستها ، فهمتَ أن المنطقة مسلوخة بين فريقين ، وكلما تشابهت اللافتات أدركتَ أنكَ في منطقة خالصة النفوذ لجهة معينة .

سيمياء اللافتات في بيروت تقول بالواضح الفاضح على القماش ما قد تكنيه خطابات الزعماء في الحشود ، أو تحبِّره أقلامُ أنصارهم على صفحات الجرائد الحزبية .

عند مدخل شارع الحمرا شرقا تُقابل كلٌّ قادم إليه لافتةٌ ضخمةٌ لصورة زعيم سياسي مغتال ، عليها عبارة «زمنٌ العدالة» . . حين تقرؤها تفهم سريعا ما بين سطورها ، ثم تعيد القراءة فيأتيك ضدُّ ما فهمت ، هي واحدة من سمات كثيرة تسم خطاب اللافتات ، وهي تغمز من طرف خفيّ هذه الجهة السياسية أو تلك ، غمزا يتعدد فيوحي بوجود أنسجة اجتماعية ، لا نسيجا واحدا ، أنسجة تتنافر تبعا لتنازع من يمثلونها في شارع السياسة والدين . ومرورا بشارع الحمرا ، كانت هناك لافتة معلقة من تحت شرفة شقة في عمارة ، كُتبت عليها تهنئة سكانِ المنطقة لابنهم البار الذي تسلَّم منصباً رفيعاً في المخابرات . وغير بعيد عن المكان ، داخل ورش عمارة جديدة ، كانت هناك شاحنة تنقل التراب ، يبدو أن سائقها اختار أن تكون له لافتة خاصة به ، فكتب على مؤخرة شاحنته عبارة «ضبُّوا دجاجاتكم . . ديكنا فالت» .

ضاحكين ثلاثتُنا من خفة روح صاحب الديك ؛ نزلنا من التاكسي في وسط شارع وديع صبرا ، واضع النشيد الوطني ،

مؤسس أول معهد موسيقي في لبنان ، ومخترع البيانو الشرقي ، في هذا الشارع كان في انتظارنا عصام ، الذي يشتغل مساعد صيدلي ، وسمسار شقق في بقية اليوم ، وهو دأب كثير من اللبنانيين الذين يغالبون غلاء المعيشة بعملين في اليوم ، عصام هو من سيقودنا إلى الشقة ، كي يعرفني عليها ، ويستلم ثمن إيجارها دون إضافات على سبيل الائتمان بضمان من ناجي ، عند الباب تركنا ودخل ، وبعد ثوان قليلة عاد ودعانا إلى الدخول ، سار بنا إلى صالون ، هناك كان أربعة شباب ، من بينهم فتاتان تستلقيان على أريكتين في الصالون ، تتابعان الأخبار في التلفزيون مع الشاب الثالث ، فيما كان الرابع على كرسي خشبي يتصفح كتابا فوق طاولة عليها أوراق وكُوز أقلام ، كمن يحضر لامتحان قريب . ألقيتُ التحية ، ووزعتُ ابتسامة على الجميع ، ثم بادر عصام إلى تقديم شركاء الشقة إلى الجار الجديد ، كل واحد باسمه ، فرح وماغي وعماد وزياد ، ثم دخلت فتاة ثالثة كانت تحضر شيئا في المطبخ ، تحمل صينية عليها كوب غلاي كهربائي وعلبة بها أنواع شاي إنجليزي ، وسكرية وكؤوس . كان اسم الفتاة شذى .

طاف بي عصام الشقة ، أراني الغرفة التي سأستلمها بدءا من صباح الغد ، وشرح لي أعراف الشراكة في البيت ، وخريطة اقتسام الرفوف في الثلاجة ، وكيفية تشغيل المزود الاحتياطي عند انقطاع الكهرباء الوطنية منتصف كل يوم ، ثم سلمته المبلغ ليغادر مع ناجي وخليل بعد أن تواعدنا على التواصل لاحقا ، فيما دعاني الشباب لاحتساء الشاي معهم والحديث قليلا .

عرفت بنفسي ، ومشروع رحلتي اللبنانية ذات الثمانية أيام ،

وبسطت الحديث أكثر عن صورة هذا البلد في عيون المغاربة ، خلال ذلك كنت أتلقى سيلا من الأسئلة عن بلدي ، وأكثرها لم يكن يسلم من نمطية الصور التي تتبادلها شعوب ما بين المحيط والخليج .

فرح وماغي طالبتان في معهد الفنون الجميلة بالجامعة اللبنانية ، تقتسمان غرفة واحدة ، وبدا واضحا من اللامسافة بينهما ، ومن اشتباك أصابع يديهما حينا قامتا لتحيتي ، أنهما تتاقسمان ما هو أكثر . عماد أستاذ رياضيات حديث التعيين من منطقة الشوف ، وزياد فتى الامتحان ذو الوجه الطفولي ، من طرابلس ، يتابع دراسة عليا في الهندسة في نفس الجامعة . وكلاهما مقيم في غرفة مفردة ، وشذى لبنانية من الجنوب تُدَرِّس الإنجليزية في مدرسة خاصة .

سأفهم فيما بعد أنها كانت دعوة ستبني عليها فرح قرارها بالموافقة على إقامتي بينهم ، بما عنى لي أنها صاحبة القرار في أمر الشقة .

لم يستغرق الأمر وقتا طويلا حتى انغرست بذرة تلك الثقة التي كانت تبحث عنها فرح . لكن ما ظل عصيا على فهمي هو أن جزءا ليس يسيرا من اللبنانيين موجودون في هذا البلد ، ويمثلهم في الحياة هؤلاء الخمسة الذين يتقاسمون شقة مشتركة ، تتعايش تحت سقفها كل اختلافاتهم المناطقية والدينية والوجودية والسياسية ، تاركين تناقضات طوائفهم لزعماء سياسيين يخطونها على لافتات يعلقونها في الشارع العام .

١٠- المقام اللبناني

عدت إلى الفندق الذي لم يكن يبعد عن الشقة أكثر من مسيرة ربع ساعة ، عدت لا ألوي على شيء سوى أخذ حمام والإنصات لدبيب التعب في العظام من نهار قضيت ساعاته سيرا ووقوفا ، وتمعنا في الأمكنة ومعالمها ، هذا النهار المزدحم بالدهشات الصغيرة والكبيرة ، في هذه البيروت التي تكشف من فورها لزائرها كثيرا من أسرارها .

يومي الأول الذي صادف بحركة قدر عجيبة ذِكْرَيَيْن ، أولى للموت وثانية للانبعاث ، ففي مثل هذا اليوم تحديدا من سنة ١٩٧٥ انقدحت الشرارة الأولى للحرب الأهلية اللبنانية ، والتي صادفت هذه السنة ذكرى أول أيام أعياد القيامة ، التي يقوم المسيح في يومها الثالث من موته .

دخلت الغرفة ، وألقيت الجسد المتعب على السرير . متأملا الظلال التي كانت ترسمها الإضاءة الجدارية على السقف ، وجدتني أستعيد الحديث الطريف الذي كان مع الشباب في الشقة ، حديث تمثل لي في صورة البيانو الشرقي الذي اصطنعه وديع صبرا بعد دراسة مضنية وعمل شاق على البيانو الغربي ، حتى يخرجه في الصورة التي يستجيب بها للمقامات الشرقية . كانت آراء الشباب تتوافق وتتخالف كما تفعل حركة أصابع يد متمرنة على لوحة المفاتيح ، تروح وتجيئ ، فتخرج أنغام الأوتار المضروبة على طبقات متفاوتة ، مؤلِّفةً مقاما واحدا . كذا كان المقام كما أتيح لي أن أنصت إليه في حديث الصالون ، لكن مقام الشارع كان ضربا آخر .

شذى (الشيعية المنشإ) تفضل الإقامة في الحمرا رغم غلاء

المعيشة وكلفة الإيجار، لأنها تجدها المكان الذي تتحرر فيه من جغرافيا الطائفة، الجغرافيا التي يقتات منها الانعزال بنفس القوة التي يتغذى بها الانتماء. لكن الحمرا لا تخفف من همّ شذى المتوجسةُ من تكرار تجربة ابنة خالتها التي تزوجت من سُنّي زواجا عن حب جارف أثمر ولدا وحيدا، يرعبها التفكير في مستقبله العائلي، فهو ابن السُّنّي حين يزور صور، مدينة أمه، وهو ابن الشيعية حين يكون في طرابلس، بلد أبيه.

زياد طالب الهندسة، يكره الأحزاب لكنه سيحتاج إلى توصية من مكتب زعيم سياسي حتى يضمن وظيفته في مؤسسة حكومية، يخضع فيها الانتساب لمحاصصة طائفية محسوبة، تبدأ من كراسي الرئاسات الثلاث، ولا تنتهي عند كراسي الطلاب في الجامعات.

عماد البارع جدا في الرياضيات، الساخر جدا من كلمة «بلد»، الذي يتضرع إلى السماء مقهقها كي يسقط كويكب فوق لبنان، أو يكتسح طوفانٌ اليابسة، أو حتى أن تهجم إسرائيل، فلابد أن تحل كارثة كي يجد ذريعة ينال بها فرصة اللجوء إلى بلد أجنبي، قالها وهو يغادر نحو المطبخ مدندناً أغنية زياد الرحباني، وما إن بدأها حتى ردد الجميع خلفه بصوت الكورال:

«هاي بلد . . لأ مش بلد . .

هاي قرطة عالم مجموعين . .

مجموعين . . لأ . مطروحين . . لأ .

مضروبين . . لأ .

مقسومين»

فرح وماغي (الحالمتان) ، الباحثتان عن هوية ترمم تلك الجريحةِ المتوارثة ، اللتان تضيفان مع كثيرين وكثيرات طائفةً جديدة إلى القائمة الرسمية لطوائف لبنان السبع عشرة ، هي طائفة اللاطائفيين الذين يرفضون وضع وسم الطائفة في قيد الميلاد . ماغي وفرح تؤمنان في إصرار بأن عزفا منفردا ذا روح وطعم حقيقي في ركن قصي ، هو اختيار أفضل من مشاركة في نشاز جماعي وسط محفل تحت الأضواء يبدو لهما شقيا وفاقدا للمعنى ، مغترا بالتفرد المتكبر الكاذب .

هكذا صار لي خمسة أصدقاء تحت سماء بلد صغير ، مساحته أكبر قليلا من «غابة المعمورة» في بلدي ، يدبر أهله فيه معيشا مشتركا ، كأنه قارة من التنويعات التي تتلاطم كالأمواج ، بعضها يقع فوق بعض ، وبعضها الآخر ينحاز إلى بعض ، وبعضها الأخير يميل على بعض ، فيكون من ذلك هدير مذهل يغري قسما من الناس باقتناص لذاذات الحياة الفارهة كما تتاح في بلد جميل الجغرافيا ، ويدفع قسما ثانيا إلى طلب الكارثة ولعن الوجود في بلد مجروح التاريخ مجهول المستقبل . ويُبقي قسما ثالثا على درب طويل من الإيمان به كمسيح كلما صُلِب ، عاد وقام من بين الأموات .

كذلك بدا لي المقام اللبناني ، مِن بوح مَن ما إنِ اطمأنُّوا إلى مشاركتي لهم شقة الإيجار ، فقبلوا بوجودي معهم تحت سقف واحد ؛ حتى صرتُ صديقا في ساعتين من الزمن . مقام مفتوح ومجروح ، مضطرب وحائر ، صارخ وساخر ، هائج وهادر ، يعزفه اللبنانيون بصيغة جلد للذات والبلد ، جلداً لا أعرف له نظيرا إلا ذاك الذي أجده عند أبناء جلدتي .

اليوم الثاني / الجمعة ١٤ أبريل

١١- فطور النكهات الخمس.

عند العاشرة من صباح اليوم الثاني ، غادرت الفندق متجها نحو العمارة التي بها شقة الأصدقاء ، على بابها وجدت الرجل نفسه الذي صادفناه عندها بصحبة عصام أمس ، كهل ستيني متجهم ، قمحي السّحنة ، لا توحي نظراته بارتياحه ، كنظرات من يضعك تحت الاختبار . قام عن كرسيه وبادرني بالسؤال : أنت المغربي النازل بالشقة ١١؟ جاوبتُ إيماءً ، فناولني مفتاح البوابة ، وعاد الى كرسيه غير آبه بعبارة الشكر التي أرفقتها بابتسامة امتنان . . عاد إلى كرسيه يكمل ما تبقى من سيجارته .

صعدت إلى الغرفة ، ترددت في فتح الباب ، فضغطت الجرس علّ أحدا ما بالداخل يفتح لي ، ويغنيني عن حرج الفجاءة ، كررت الأمر دون جدوى ، ففهمت أن الجميع قد خرج ، أدرت المفتاح ، ودخلت ساحبا حقيبتي . في نهاية الممر كان عماد يستقبلني بابتسامة ونصيحة : «عبدالله سجل عندك هذه القاعدة : لا أحد سيفتح لك مادام لديك مفتاح الشقة» ، قالها ودخل إلى المطبخ . . شكرته ودخلت غرفتي ، رتبت أغراضي ، وسمعت نداءاته لي من جديد ، دعاني إلى مشاركته فطوره ، لأنني كنت قد تحدثت أمس عن حرصي في رحلتي على أن أكون

على طبع أهل البلد فيما يأكلون . . مناقيش بالجبنة والزعتر ، والمناقيش أقراص خبز دقيقة تتعدد أصنافها بحسب ما يوضع عليها من أجبان ، أو لحوم ، أو خضار ، أو زعتر مخلوط بسمسم ، ومسقي بزيت الزيتون ، وكان على طاولة عماد أيضا كِشْك مطبوخ ، وهو برغل ينقع في لبن ، ثم يجفف ويطحن حتى يصير دقيقا ، ومن ثَمَّ يطبخ في الماء مع ثوم ولحم ، بالإضافة إلى طبق المسَبَّحة ، وهو حمص مسلوق مع طحينة ، وحامض ، وثوم ، ومعدنوس ، وزيت زيتون . وأخيراً ، وبنبرة حماس استعراضي ساخر ، أشار عماد إلى طبق الشَّنْكليش ، وهو كرة جبن صلبة من لبن مطبوخ مجفف ، تعلوها طبقة من أعشاب مجروشة وتوابل . توسط المائدةَ طبقُ لَبْنَة صَبَّ عليه صديقُنا زيتَ زيتون ، وزَيَّنه بقطع طماطم ، وخيار ، وورق نعنع .

فطور مثل هذا ، مع الشاي الأحمر يبقي صغيرَ معدةٍ مثلي في حال شبع إلى منتصف الليل . شكرتُ صاحبي على الدعوة ، ووعدته أن يكون الفطور القادم بشاي مغربي أخضر جلبت معي علبة منه .

الفطور طقس الطعام الأول رتبة في وجبات اليوم . أكلُ أوّلِ النهار ، الذي يكنز أسرار ما انعقد من العلاقة الفطرية بين الإنسانَ والطبيعة المحيطة به . حيث حواسه الخمس في أول انتباهاتها الصافية ، وتحضيره هو خلاصة قراءته الحسية ، وتأويله الطقوسي لموجودات تلك الطبيعة ، واختياره من بينها ما يجترح به توليفةً لشعيرته الصباحية .

ناظرا إلى مائدة عماد ، كنتُ أرى من مخيلتي ، عيني كلود

ليفي شتراوس من خلف نظارته تحملقان فيها ، وأنفَه الطويل المحدب يحاول أن يتشممها ، تُرى ماذا كان سيقول لو كان هنا ، وهو يتنسم نكهات نَيِّئها ، ومخبوزِها ، ومطبوخِها ، ومُعَفَّنِها ، مجتمعة في هذا النسق من التعدد المحتفل بالتنوع والتوازن؟ . . التوازن سر الشيفرة اللبنانية ، من أطباق الفطور إلى مواد الدستور ، إنْ تحقَّق حلا المعيش ، وإنِ اختلَّ حلَّت الكارثة .

تلذذتُ بكل قطعة خبز رقيقة كنت أغمسها في أحد الأطباق ، وأحملها إلى فمي ، مفكرا في السرّ إياه ، ناظراً من مخيلتي هذه المرة إلى آذان شتراوس وهي تنتبه إلى نكهة خامسة كانت تفوح في المكان . . نكهة الصوت الفيروزي ، التي لا يمكن أن يتوازن الصباحُ اللبناني وفطورُه بدونها .

١٢- بيت اللاجئ وأم الفقير

جاملت عماد بهدية رمزية ، تعودت أن أحمل في أسفاري كمية منها ، تحسبا لمثل هذه المواقف ، وهي قنينة زيت أركان من الصنف الذي يُطْعَم ، ولما كان اليوم عطلة فصح ، فكرت أن أدعوه إلى شرب قهوة إن كان وقته يسمح ، قَبِلَ دعوتي ، على أن نشربها في مكان بعيد عن هنا ، مع ثالث ، هو صديق له سيرافقه إلى سوق في الضواحي ، ليبتاعا أغراضا منه . لم ننتظر طويلا ووصل صديقه أيمن في سيارته ، عند باب العمارة كان صاحبي المتجهم إياه يُحَيِّي من معي ، ويشيح بنظره عني .

في الطريق جنوبا تشرع بيروت سريعا في تغيير ملامحها ؛ تصير المعالم أقل انتظاما ، وأكثر اكتظاظا ، وتضيق المسالك

بسابلتها ومركباتها ، ويغصُّ الهواءُ بأدخنة العوادم ، وأتربة الأرصفة . . وتُفشي شرفاتُ العماراتِ وسطوحُ البيوتِ أسرارَ ساكنيها . . كنا كلما تقدمنا جنوبا نجد للشيء الذي نتركه خلفنا وسط بيروت نظيراً له ، لكن في صورة توحي بقلة ذوات أيدي الناس ، وقصر يد الدولة .

في الكرسي الخلفي للسيارة ، ظللتُ طوال الطريق صامتا ، حتى قطع الصمتَ صوتُ عماد الساخر ، الذي يُقدِّم له كعادته بقهقهة صغيرة : «**شد حزامك يا مغربي ، ومرحبا بك في حزام الفقر**» . . ضحكت وأجبتُ : «**مشدود صديقي ، ويمكن أكثر من اللازم**» . فهم الإشارة ، وتساءل : «**يعني عندكم أكثر من هذا الذي ترى**» . . سأثق قليلا في انطباعي الأول ، وأقول إنَّ الفقر اللبناني أهون مما أعرفه في بلدي ، وأهون بكثير جدا مما رأيته في بلدان شقيقة .

في نقطة من الطريق سيخبرني عماد أن منها يبدأ الحد الفاصل بين محافظتي بيروت وجبل لبنان . وسأعلم منه حينئذ أن الوجهة هي سوق صبرا .

للحظة خاطفة عبر الاسم إلى أذني وأصدى داخلها طويلا . .

الفلسطينيون . البيوت ، المجزرة ، ١٩٨٢ ، الأطفال ، النساء ، ١٦ ، شارون ، ٣٥٠٠ ، أيلول . . أيلول ، الدم . . الدم . . الدم . .

مرَّت الكلمات والتواريخ والأعداد في ذهني مبعثرة ومتشظية ، مرت وحفرت مثلما تفعل عجلاتُ مجنزرةٍ في حقلٍ مُوحلٍ . انكمشتُ في كرسيٍّ ، لم أتزحزح فيه إلا حينَ ركَّنَ أيمنٌ السيارةَ في بقعة أرض اتُخِذَتْ مَرَآباً .

ترجَّلنا مسلكاً نختصر به المسافة ، نطأ فيه أكوام الأتربة والقمامات المتعفنة ، وسرنا في طريق تصطف فيه محلات إصلاح العجلات ، وبيع المتلاشيات ، وقطع الغيار المستعملة . كنتُ منقادا لسير رفيقيَّ ، أخفي شعورا هو خِلْطٌ من دهشة الوارد ، ورهبة الغريب ، وتوجس العارف وصدمته . كان المكان يغص بالباعة ، والمارة ، والمتسوقين ، تتكدس على جانبيه عرباتُ بائعي الخضار ، والأواني ، والأدوات المنزلية ، والألبسة الجديدة والمستعملة ، إلى جانب محلات بيع اللحوم ، ومطاعم الشواء ، فلا يكاد الواحد يجد لقدميه موطئا ، وسط هذا المحشر الصغير الضاجٍّ بصياح الباعة ، وأصوات الأغاني ، وزعيق الأولاد ، وهدير الدراجات النارية ، والعابق بروائح البضائع ، ومجاري الصرف الصحي ، ودخان مواقد الشواء .

توقف الصديقان عند متجر ، ابتاعا منه غرضيهما ، واتجها إلى آخر قريب يعرض أقراصا لأفلام مقرصنة . اغتنمت فرصة وابتعت من صاحب (بسطة) قبعة شمسية من ماركة شهيرة بثلاثة دولارات ، وحين لم يجد البائع في جيبه فكة ليعيد إلي الباقي ؛ عرض علي بيع اثنتين بخمسة دولارات ، فلم أمانع . تجولت غير بعيد في المكان الذي تبدو فوضاه كأنها ديكور سينمائي مبالغ في افتعاله ، عالم منفرد تُرك كما يُترك يتيمٌ في ساحة حرب ، ثم غُلِّقَتْ في وجهه الأبواب مخافة أن ينفلت ، فتشبث بالحياة ضَدّاً على أعدائه وأشقائه ، كتب تاريخه على الجدران ، وصنع اقتصاده بما أمكنه من كدح ، تاركا أبوابه مشرعة للهاربين إليه من الظلم أو من العدالة .

إلى سوق صبرا ، (أم الفقير) كما ينعته اللبنانيون ، يلوذ الباحثون عن حاجياتهم المعيشية من أهله ، والقاصدينه من بعيد ، كشأن صديقيَّ ، يقتنونها بالأسعار التي تعطف على ليراتهم القليلة مثل أمّ . يمتد السوق على طول الشارع الرئيس للحي الذي يشكل امتدادا لمخيم شاتيلا ، المخيم الذي حلت به أولى موجات اللاجئين من شمال فلسطين في العام ١٩٤٩ ، صار الآن ملاذا لنازحين جدد ، سوريين وفلسطينيين وعمال آسيويين ، يجدون فيه ضالاتهم من قرص الخبز الرُّقاق والبطاطس والبندورة ، إلى قرص الفيلم الهوليودي الأخير ، والعطر الباريسي المُقَلَّد .

تجولت قريبا ، ثم عدت نحو صديقي ، حاملا قبعتين شمسيتين ، واحدة في يدي ، وثانية أتقي بها شمسا كانت تضيف نهارا آخر في التوقيت العكسي لقنبلة اللجوء والفقر .

١٣- دولة الضاحية

عدنا من حيث أتينا إلى السيارة . انتبهَ لي عماد وأنا أقيِّد سطوراً في مفكرتي ، فمازحني بنبرة مسرحية ضحكنا منها جميعا ، «أكتبْ عندك : وعُجْنَا بِنَاقَتِنا على ضاحية الحزب الغالب بالله ، وهناك أكلنا بوظة وشربنا قهوة بدعوة من صديقنا المغربي» .

اتجهنا جنوبا ، كان المشهد مع تقدمنا يتغير سياسيا ، ويتحسن عمرانيا ، ويزدحم باللافتات التي تشي بانتسابه السياسي أو الديني ، وهو في الضاحية الجنوبية أوضح ، ويكاد يكون خالصا وبدون منازع ، فاللافتات تملأ الجدران وأعمدة الكهرباء بصور الزعماء ، والشهداء ، صورٌ تُلتقط فيها الوجوهُ من مسافة قريبة ،

ومن زاوية منخفضة ، فيصير لملامح الوجه سَمْتٌ من الوسامة الثورية والطهارة القيادية ، وكلاهما يستحوذ على عيون الأتباع وقلوبهم ، يرون فيه أمثولتهم المفقودة وخلاصهم المنشود ، وتحت اللافتات نُصِبَتْ أعمدةٌ عُلِّقت بها صناديق صغيرة للتبرعات التي تؤول إلى مؤسساتٍ تكفل الأيتام وعوائل الشهداء .

عبرنا نصف شارع الإمام الخميني ، متوغلين في الضاحية غربا ، حيث حارة حريك ، هنا ما أعتقد منذ وقت طويل أنه قلعة محصنة ، مَرئيةٌ كلُّ بقعة فيه ومُراقَبة من حراس الحزب ، وهو انطباع حضرني من مشهد الإجراءات الأمنية التي كانت واضحة في الحواجز الفولاذية ، ومربعات الأسمنت المسلح ، والأسلاك الشائكة ، وأكثر وضوحا في عيون عناصر أمنية بلباس عليه شارة الحزب ، لم أستطع أن أدفع عني شعورا بالتوجس ، ووجدتني بحركة تلقائية أتحسس جواز سفري في جيبي ، أتأكد أني أحمله معي ، فقبل أسابيع من قدومي كانت المخابرات المغربية تسلم لحليفتها الأمريكية شخصية نافذة في الحزب ، وصفتها وسائل الإعلام بالصيد الثمين .

رويت الحكاية لعماد مستعيرا نبرته الساخرة ، متحسرا أني لن أخذ حريتي في الحركة والتصوير ، فجاء رده جديّاً هذه المرة ، حين نصحني بعدم استعمال كاميرا الهاتف ، وأنه سيتصل بشذى إن حصل أمر غير متوقع ، «ولَماذا شذى؟» سألته ، فأجابني لأنها قريبةُ قياديٍّ كبير في الحزب ، فهي ضامنة مضمونة . فاجأني الأمر كثيراً ، ولم أشأ أن أبدو فضوليا فأتوقف عنده ، مع أنه أشعرني بما يشبه الرضا ، ربما لأنه يبرز النموذج الذي يكسر القاعدة ، والقاعدة

في هذا البلد أن تستقوي -كرها أو طواعية- بالطائفة، لا أن تستقل عنها بنفسك.

أكملنا جولتنا في اتجاه قلب حارة حريك، وتوقفنا أمام مركز تجاري لنحتسي القهوة الموعودة، كان المركز على تواضع مساحته فاخراً، عصريَّ الطراز، يقدم أنواعا من القهوة والعصائر والحلوى الفرنسية، حتى مضيفاته كنَّ بحجابهن الأنيق، وماكياج وجوههن الرائق؛ يُضفِنَ مَسْحَةً من البَذَخ على المكان.

انتهينا من احتساء القهوة في باحة المركز، وانطلقنا سيراً على الأقدام، كان أول مَعْلَم صادفناه في طريقنا هو مسجد الإمامين الحسنين، وهو مُجَمَّعٌ يضم إلى جانب المسجد، مركزا ثقافيا، ومكتبةً عامةً، وضريحَ المرجع الشيعي محمد حسين فضل الله، الزعيم الروحي لشيعة لبنان ممن لا يتبعون خط ولاية الفقيه الإيراني. وهو ما يسحب على هذا المسجد رمزية القبلة لديهم. خلافا لإخوانهم في الحزب.

عند إحدى بوابتي المسجد استأذنت الحارس في الدخول، فأجرى مكالمة بهاتف لاسلكي، وسمح لي بعد أن فحص جوازي. ومررت من بوابة الفحص الإلكتروني، كانت جولتي بالمسجد قصيرة، رغم أن المكان مُبْهِرٌ يُغري بالبقاء طويلا، بهندسته الدائرية المشعرة بالسكينة، وقطع القاشاني التي تحيط بأقواسه الداخلية، ونقوش الخط العربي المذهبة التي تملأ سقفه المقبب، غير بعيد عن المسجد كانت صناديق التبرعات تحمل شارة جمعية المبرات.

خرجت إلى صديقيَّ وانطلقنا بالسيارة في كل اتجاه، عبرنا أمام الزقاق الذي يقع فيه مجمع سيد الشهداء، حيث تجرى

مؤتمرات الحزب واحتفالاته ، وتذاع فيه خطابات أمينه العام ، وهو ما يجعل منه قبلة الفريق الثاني في الحارة ، وقلعة محصنة محروسة بعين واحدة نحو إسرائيل ، وبألف عين نحو خصوم الحزب في الساحة السورية .

غيَّرَتِ الجولةُ في شوارع حارة حريك صورتَها عندي ، فلم أعثر على أثر من مخلفات العدوان الإسرائيلي المُدَمِّر على الحارة ، قبل إحدى عشرة سنة ، إذ بدت الحارةُ مدينةً مرتبة ، بشوارع نظيفة وواسعة ، وعمارات سكنية حديثة ، ونشاط تجاري واضح من محلات الماركات الأجنبية ومراكز التسوق ، ومرافق الخدمات الاجتماعية ، وشواهد عن جوار مأمون بين عيسى بن مريم وعلي بن أبي طالب .

١٤- هنا المخيم

عبرنا شارع هادي حسن نصر الله إلى الجنوب ، ومنه انعطفنا غربا في اتجاه مخيم برج البراجنة ، وصلنا إلى طريق ضيق تصطف على جانبيه محلات ، أكثرها لبيع الملابس ، والأحذية الرياضية ، والبضائع الصينية الرخيصة ، هناك استطاع أيمن بالكاد أن يجد مكانا يصفُّ فيه سيارته ، ترجّلنا ، وسرنا في زقاق ضيق ، بعد خطوات قليلة كنا نغادر عالماً ، وندخل آخر ، نخرج من زمن ، ونغوص في آخر ، نستنشقُ هواءً ونغصُّ بآخر . . وحدها نظراتٌ المارة تعيد إلى الزائر الغريب وعيَه بالزمن ، تتفحَّصه باستغراب ، كأنها تقول له : من أنت؟ ما أتى بك إلى هنا؟ من أي حلم جئتَ تدخل كابوسنا؟ .

عشرون ألفا من الخلق أو أكثر يتكدَّسون في كيلومتر مربع واحد أو أقل . هنا لا يمكن أن تفكر في ملاطفة أحد كي تتجاذب معه طرَفاً من حديث . .

هنا ، في المخيم الفلسطيني عالم النَّبْذ الذي يُفجِّر الرغبة في الانتقامِ من العالم ، أو الانتصارِ عليه ، لا حلٌّ ثالثٌ ، هنا ينام أهل المخيم - وككلِّ مخيم - على سؤال ، ويستيقظون عليه ، يهربون منه ، ويفرون إليه ، يُرضِّعونه للصغار ، ويفطمونهم عنه .

متى سنعود؟

هو سؤال الأسئلة وكبيرُها ، كبيرُها الفارقُ ، الحارقُ ، السَّاحقُ ، الماحقُ ، العالقُ المُعلَّق . .

هنا المأساة كابوسية حد الصراخ الصامت . والوجع جحيميٌّ قديم مرت عليه أجيال ، تشدُّ عليه ، ويقتات منها . . هنا يكفي أن تنظر إلى عيون الأطفال ، شعورِهم وأسمالِهم ، يلعبون جنب مياه الصرف الصحي الجارية على سطح الطريق ؛ لترى فيها عيون أجدادهم الذين وصلوا إلى هنا منذ سبعين سنة . . جدار البيت وشرفته كما هما منذ عشرين عاما ، لا أسمنت يدخل ولا طوب ولا مسمار خشب ، ولا شعاع شمس ، سوى ما ينفذ من بين شِبَاك أسلاك الكهرباء المعلقة فوق الرؤوس .

للمخيم لافتاته المنصوبة بين جدار وجدار ، صور زعماء الفصائل تتقاسم المداخل والحيطان ، ياسر عرفات ، وخليل الوزير ، والشيخ ياسين ، وجورج حبش ، وأبو علي مصطفى . . . وجوه أبوية تعوِّض يُتماً جماعياً يحرس الذاكرةَ بعيون حنظلة المرّ ، وشارةُ نصر فوق وجه جيفارا الحالم ، وسطرانِ من شعر قديم للعاشق الذي من فلسطين . .

تقدمنا في زقاق فرعي ، لا نكاد نَتَبَيَّنُ في عتمته مواطئ أقدامنا ، تقدَّمنا حتى ضاق بثلاثتنا ، فآثرنا العودة من حيث جئنا ، في الطريق كان الأطفال يتقاذفون كرةً يردها إليهم الجدار ، وصبيتان تجلسان على عتبة منزلهما تتصفحان دفتراً مدرسياً ، وكان الشيخ بكوفيته ذات العقال الأسود يخرج من بيته ، يحمل كرسيا في يده ، ويجلس على مسافة شِبْرٍ من الباب ، وعلى مسافة مائة كيلو متر أو أكثر قليلا من هناك . . هناك على الحدود بين لبنان وفلسطين المحتلة ، حيث تنضج الآن أشجار تفاح في مزارع الجليل ، وتزهر فوق التلة زيتوناتٌ مُعمِّرة تنتظر عودة الغائبين .

١٥- سِرُّ ما جمع الشاميَّ بالمغربيّ

من هناك عدنا أدراجنا ، كانت الساعة الثالثة قد انتصفت ، مررنا بمطعم عالجنا فيه قرقرة أمعائنا من الجوع ، ومنه رجعنا إلى البيت بالحمرا ، عند باب العمارة ودَّعت أيمن ، وتخلفتُ بخطوة عن عماد ، متعمدا أن أتركه يسبقني .

ممسكا بالقبعة الثانية ؛ بحثت عن البواب المتجهم إياه ، فلم أره ، لكن كرسيه جنب الباب ، دلَّني أنه غير بعيد .

صعدتُ إلى الشُّقّة ، دخلتُ الغرفة ، وفتحت شبَّاكَها ، أستطلع المشهد منه ، فتناهى إليَّ صوتُ صاحبنا ، تناولتُ من الحقيبة قنينةَ زيت كالتي أهديتُ لعماد ، وضعتُ قبعة الشمس التي اشتريتُ على رأسي وحملتُ الثانية ، ثم أسرعت بالنزول . وجدته عند الباب ، حيَّيْتُه ، فردَّ التحية بالتجهم نفسه ، «أحب أن أهديك شيئَين ، أولٌّ من هنا» ، وناولته القبعة ، «وثانٍ من

المغرب» ، وقدمتُ له قارورةَ الزيتِ ، شارحاً له أنها زيتٌ من شجرةٍ لا تنبتُ إلاَّ في المغرب ، تناولهما مني كأنه يُغالب نفسه ، وغمغم على مضض «النبيّ ما ردَّ الهدية» ،ثم أتبعَ بسؤال : «**هو صحيح أنت من المغرب؟**» . . تبسّمتُ في وجهه الملفوح بالشمس وسألته : «**شو قصتك مع المغرب؟**» فتدافعت عبارة جوابه متسارعة من لسانه : «**بصراحة أنا لا أحب المغاربة**» ، قالها وهو يحدّق في وجهي ، يتوقع أن يرى فيه استهجانا ، فلمَّا لم يجد شيئاً ؛ انبسطتْ أسارير وجهه ، وفاضت من بين تجاعيدها طيبوبة حقيقية : «**لكن يبدو أنك واحد طيب**» .

تعمَّدتُ أن اختلس نظرةً إلى ركوة القهوة العربية التي كانت تحت الكرسي ، فالتقط الرجلُ الإشارة ، ذهب وعاد سريعا ، يحمل فنجانا ، صبَّ لي ، وهو يُصرُّ على أن أجلس على الكرسي ، ويقعد هو على حافة نافذة الطابق الأرضي للعمارة .

أبو ثائر ، ولد ونشأ في قريةٍ ما ، في ريفٍ ما ، من أرياف سوريا ، مازال يذكر ذلك اليوم الذي وصل فيه إلى القرية غريبان ، كانا مغربيين في طريقهما إلى الحجّ كما زعما ، طلبا المبيت من أهلها فأكرموهما . في اليوم الثاني تودَّدا إلى كبير القرية ، وأقنعاه أنَّ فيها كنزا مخبوءاً ، وأنهما خبيران في تسخير الجان لمعرفة مكانه واستخراجه ، وسيكون عليه أن يخصِّص البيت الذي اختاراه ، فلا يقربه أحد من القرية أو يتلصّص عليه ، فتنتقض طلاسمُ التحضير ويبطل مفعولُها ، وأن يسخر لهما أيضا من يساعدهما في الحفر ، على أن يكون نصيبهما من الكنز ثلثه ، فكان لهما ما أرادا .

ظل الرجلان ثلاثة أيام لا يغادران البيت ، إلا ليُعَيِّنَا للحفَّارين

في كل يوم موضعا جديدا للحفر ، يعودان بعده إلى طقوسهما . في اليوم الثالث ، تأخرا في الخروج صباحا كعادتهما . انتظرهما الكبير والحفارون ومعهم أهل القرية ، لما طال بهم الانتظار ، تجرؤوا واقتحموا البيت ، فلم يعثروا لهما على أثر ، وكان كل ما وجدوه هو مبخرة ، وأدوات حفر ، وحفرة عميقة خاوية .

كان عُمْر أبي ثائر وقتئذ خمس سنوات ، ومازال يذكر حديث القرية عن خديعة المغاربة . . السحرة . . اللّصوص . . الملاعين .

أنصتُّ للحكاية التي رواها أبو ثائر بأدق تفاصيلها ، أنصتُّ وأنا أتابع حركة تجاعيد وجهه ، التي كانت تشي بمتعة باطنية في الحكي ، كأنه يحافظ على تفاصيلها كما رواها عشرات المرات ، وبنفس الطريقة التي سمعها هو بها عشرات المرات . أنصتُّ ولم أشأ أن أخبره أني سمعت مثلها أكثر من ثلاث مرات ، كانت واحدة منها عندما زرت دمشق في العام ٢٠٠٨ .

سكتَ قليلا ، سحبَ أنفاسا عميقة من سيجارة جديدة ، وتابع الحكي بنبرة منكسرة هذه المرة ، حكاية عن صباح مرت عليه ثلاث سنوات فقط ، في نفس القرية التي صار الآن أطفالها من أقران أبي ثائر شيوخاً ، وقد استفاقتْ على أصوات الرصاص والقذائف ، تقصفها بها كتيبةٌ من الدواعش ظلت تحاصرها لأسبوع ، إلى أن طردت منها ثوّارَ الجيش الحر ، فنزح الجميع نجاةً برقابهم من سكاكين التوحش . كانت الكتيبة مؤلفة من مغاربة . . قتلة . . لصوص . . ملاعين .

لم تفاجئني حكاية الكنز التي رواها أبو ثائر وجعلت نظرته إلى المغاربة تأخذ هذه الصورة في وجدان طفل ، لكن قصة هروب

الشيخ بالروح ، واقتلاع الفلاح من أرضه التي يزرع ، والانتهاء به بوّاباً في عمارة من عمارات الحمرا كان تُثْخِنُ تمزيقاً في الروح والوجدان ، وتُمْعِنُ تحطيماً في الأمان للحياة .

بين حكايتي المتعة والانكسار ، رويتُ لأبي ثائر حكاية ثالثة عن جنود مغاربة سالت دماؤهم على تراب سوريا في حرب تشرين ١٩٧٣ ، وحكاية رابعة عن رحلة عائلات من (الهنادزة) ، أحد فروع عشيرة الفواعرة الشامية ، وقد صارت الآن قبيلة في شرق المغرب أحمل جيناتها في دمي .

بحركة سريعة ربَّتَ أبو ثائر على كتفي ، كأنه يصالح فيَّ خصومَه الملاعين . هنالك رمقنا عماد الذي كان يخرج من بوابة العمارة ، واقفاً على هذا المشهد ، معلِّقاً عليه بعبارة ماكرة : «**الله وحده يعلم شو لَمِّ الشامي ع المغربي؟**» .

١٦- مغاربة لبنان

صالحتُ أبا ثائر مع المغاربة ، وعدتُ إلى الغرفة لأخذ قيلولة نهار كان طويلا . كانت الساعة سادسةً حين استفقت على رنين هاتف من ناجي الذي افتقدني ، يطمئن على أحوالي ، فتواعدنا على العشاء معاً .

قبل التاسعة بقليل خرجت من الشقة في اتجاه الكوستا ، هناك وجدت ناجي بانتظاري ، وانطلقنا في جولة في شوارع الحمرا ، انتهت أمام مطعم للدجاج . لم تكن بي رغبة للأكل ، لكن حديث ناجي عما يقدمه المطعم فتح ثغرة في جدار الشهية ، فللدجاج المشوي هنا طعم آخر ، إذ يزيلون عنه عظامه ويدفقون

عليه صلصة الثوم قبل أن يُلَفَّ في خبز الرقاق، ليقدم مع البطاطا كوجبة سريعة.

ما إن أخذنا مجلسنا في المطعم، حتى انتبهت إلى ديكور حيطانه المغلفة بورق سميك لاصق، طُبعت عليه صور ونصوص، تفحَّصتُها فكانت عشرات من الصور الفوتوغرافية بالأبيض والأسود، تعود لبيروت في أزمنة مختلفة، نسخة من أرشيف حقيقي تبدو عليه الندرة والنفاسة، ثم أخذت في قراءة النصوص، كان بعضها مقتطفا من روايات، وبعضها الآخر كأنه من تحقيقات صحفية أو كتب تاريخ. وأكثر الذي استرعى انتباهي هذا النص: «**تفاوتت الجذور التاريخية للعائلات البيروتية بين نظريتين، الأولى تشير إلى أن معظم البيارتة من أصول مغربية، (المغرب، تونس، الجزائر، ليبيا) والثانية هي أن بعض العائلات المغربية البيروتية شامية الأصل، وتعتبر في الوقت نفسه من أهم العائلات البيروتية لما قامت به من دور بارز في بيروت، في الميادين الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية.**»

كانت المعلومة جديدة بالنسبة إليّ، تماما كجِدَّة طعم الدجاج بصلصة الثوم، انتهيت من العشاء مع ناجي، وتوادعنا بعدما زودني برقم سائق تاكسي من أجل برنامج الغد.

عدت إلى الشقة، وبدأت من فوري الإبحار في شبكة النت، فكان ما وجدته يؤكد ما قرأت داخل المطعم ويُوَثِّقُه، فالعبارة بنصها تعود للمؤرخ اللبناني حسان حلاق في كتابه «***موسوعة العائلات البيروتية: الجذور التاريخية للعائلات البيروتية ذات***

الأصول العربية واللبنانية والعثمانية . . .» ويذكر فيه بالنص أيضا : «**ويمكن القول أيضاً أن بعض هذه العائلات المغربية هي أقدم العائلات التي توطنت في بيروت ؛ لأن هجرتها الواضحة إلى المدينة بدأت بعض الشيء في العهد الأموي ، ثم في العصور الوسطى في فترة الحروب الصليبية ، ثم مع سقوط الأندلس عام (١٤٩٢م) ، كما توالت الهجرات المغربية عبر سنوات طويلة فيما بعد إلى بيروت ، ومختلف بلاد الشام ، إلى نهاية الحكم الفرنسي عام (١٩٤٦م)**» ، وحين حديثه عن موجات الهجرة إلى بيروت ، يأتي على ذكر الموجة المغربية الأندلسية ويعزوها إلى عوامل ، منها عبور ركب الحاج من بيروت ، وطلب العلم ، والتطوع للجهاد .

وفي مواضع أخرى وقفت على ما يفيد أن كثيرا من أبراج بيروت ، وهي بنايات ذات وظيفة تحصينية ، بنيت على غرار أبراج قلعة المدينة قبل أن تزول في وقت لاحق ، وتعود بعض هذه الأبراج إلى عائلات من أصول مغربية ، كذلك الشأن بالنسبة لكثير من الزوايا الدينية التي يعود تأسيسها إلى متصوفة وصلحاء قدموا من المغرب ، أشهرها زاوية البياطرة ، وزاوية القطن ، وزاوية باب المصلى ، وزاوية الشيخ الراعي المغربي (من أعلام القرن ١٢ الميلادي) ، وزاوية أخرى عرفت بزاوية المغاربة ، أنشأها مغربي يدعى الشيخ محمد المغربي . كما يذكر المؤرخ نفسُه مجموعةً من الأسر البيروتية التي تدل أسماؤها على أصلها المغربي ، ويشير إلى وجود مقابر خاصة بهم ، أشهرها جبانة المغاربة .

وخلال الإبحار عثرت أيضا على إشارة في كتاب فيليب حِتّي

عن تاريخ سوريا ولبنان فلسطين ، تأتي على ذكر كتيبة محاربين مغاربة كانوا تحت إمرة أحمد باشا الجزار حين عُيِّن نائبا لوالي الشام على بيروت ، وذلك في العام ١٧٧٣م .

ووَقَعْتُ أيضا على مذكرات لمتطوعين مغاربة في صفوف الثورة الفلسطينية ، شاركوا في الحرب ضد القوات الإسرائيلية في بيروت صيف ١٩٨٠م .

كان الليل قد انتصف ، طويت الحاسوب استعدادا للنوم ، إلاّ أن خاطرا عنَّ لي وألحّ ، فعدتُ للإبحار من جديد ، باحثا عن شيء أخير ، شقيتُ ساعة في اقتفاء أثره ، حتى وقعت عليه في هذه العبارة :

«ثم سرنا إلى مدينة بيروت ، وهي صغيرة حسنة الأسواق ، وجامعها بديع الحُسْن ، وتُجلَب منها إلى ديار مصر الفواكهُ والحديد» .

من كتاب تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار
لمحمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي
المعروف **بابن بَطُّوطَة المغربي** (٧٠٣ - ٧٧٩هـ)

اليوم الثالث / السبت ١٥ أبريل

١٧- صخور وأحفار

استيقظت باكرا ، أعددتُ مشروب عسل وحامض ، وتزودت في حقيبة الظهر ببعض الخبز والجبن ، وانطلقت بعد تحية صباح مشرقة من أبي ثائر . كانت وجهتي هذا الصباح مقررة منذ زمن بعيد ، تحديدا منذ لحظة تعود إلى أكثر من خمس عشرة سنة ، تابعت فيها خبراً تلفزيونيا عن المكان الذي سأقصده ، وظللت أحتفظ منذئذ بأثر منه في نفسي .

نزلت إلى الشارع ، بعدما هاتفت أبا وليد السائق ، قضيتُ ساعة في انتظاره إلى أن وصل ، ثم انطلقنا على الطريق السريع في اتجاه جونية شمالا ، بعد كيلومترات معدودة وحال بلوغنا جسرا على نهر الكلب ، أخبرني بوجود آثار ونقوش عند سفح الجبل ، استحسنت الفكرة ، فعطفنا الوجهة نحو طريق فرعي يقود إلى بلدة زكريت ، فوق رصيفه الضيِّق صفَّ أبو وليد التركماني السيارة . ترجَّلتُ أكتشفُ المكان ، هنا كان يتوقف على مدى أكثر من أربعة آلاف سنة قادة الجيوش يُوَقِّعون على صفحات الجبل وصولهم الغانم وانتصاراتهم الحربية ، ثلاثة وعشرون توقيعا ، في نقوش أونُصُبٍ صلدة بين تجاويف الصخر تؤرخ للمنتصرين الذين مرت جيوشهم من هنا . . رمسيس الثاني ، نبوخذ نُصَّر ، كاراكلا ، نابليون

الثالث . . . تتتابع النقوش كأنها تدير عجلة الزمن ، فراعنة ، آشوريون ، بابليون ، يونان ، رومان ، إنجليز وفرنسيون . لتتوقف العجلة عند نصب الانتصار على الإسرائيلي ، وتحرير الجنوب اللبناني في العام ٢٠٠٠ .

هنا حُفِرَ الصّخْر زهواً بالانتصار .

عدت إلى السيارة ، وانتبهت إلى لوحة تشير إلى كنيسة دير قديم . كنت قد رأيت كنائس كثيرة في المدن ، وهذه المرة لم أشأ أن تفوتني الفرصة كي أرى ديرا في بلدة على رأس جبل . أكملنا الرحلة على طريق يتلوَّى صعوداً نحو بلدة زكريت ، بعد كيلومترات قليلة وصلنا إلى تلة مشرفة على فجاج النهر ، يُرى منها مَصَبُّه في البحر ، هناك توجد كنيسة دير مار عبدا المشمّر . دعاني الراهب الذي انتبه لوجودي ، فكانت جولة قصيرة روى لي فيها تاريخ الدير الذي بُني في القرن الخامس الميلادي مكانَ معبدٍ وثني . كان الأهالي يقدمون أطفالهم على مذبحه قرابينَ للآلهة ، كي تحميهم كلما تراءى لهم من أعلى التّلّة معتدون أو غزاةٌ . أسفل كنيسة الدير يوجد محبسٌ هو مغارة كان يتنسَّك فيه الرهبان الأوائل ، وخلف الكنيسة محبسٌ أخر هو عبارة عن غرفة صغيرة حفرت في الصخر ، تحمل آثار نسّاك أقاموا فيها ودفنوا جنبها . يزور المؤمنون هذا الدير ، وكثير منهم يفعل توسّلاً بقدسيته لإنجاب الأبناء ، فيتركون في أرجاء المحبسين أحجاراً صغيرة ملفوفة في ثياب أطفال .

هنا حُفِر الصَّخرُ شفاعة عند القدير ، ولِواذاً به .

على الطرف الأخر من التلة ، وعلى خط تحليق العصفور ، يقع

المكان الذي أحتفظ برغبة مشاهدته منذ تابعت الخبر التلفزيوني المذكـور . بينمـا على الأرض ، كـان علينا الإياب إلى الطريق السريع ، لنكمل الرحلة عبر بلدة ذوق مصبح ، وصولا إلى موقع المغارة ، هدفي الأول من هذا السفر الصباحي .

وصلنا ، قطعتُ تذكرتين ، حين علمت من أبي وليـد أنه لم يسبق أن شاهد المكان ، أخذنا دورنا لوقت ليس قصيرا في طابور كان مزدحما بكثير من تلاميذ المدارس ، فعدا عن أنه يوم سبت ؛ فهو ثالث أيام عطلة الفصح ، وللسبب الأخير خمنت أن مجموعة المصريين الذين كـانوا في الطابور هم على الأرجح أقـبـاط يزورون لبنان في هذه الأيام المقدسة .

المدخل إلى المغـارة نفقٌ أسطواني من الإسـمنت تضيـئـه مصابيحِ النيون الأبيض ، ويمتد على أكثر من مائة متر ، تقطعها مأخوذاً بخفة تستثيرها الطراوة القادمة إليك من الداخل . حين يقودك النفق إلى نهايته تجد نفسك واقفا عند عتبة الغَور الصخري العظيم ، فيتحرر الضوء الذي في عينيك ، وتتحول تلك الخفة التي كـانت قـبل حينٍ إلى انتشـاء يبـدأ في التـعـاظم مع كل خطوة تخطوها ، وكل التفاتةٍ تلتفتها ، . . ثم تقف .

لا بد أن تقف ،

وتصمت ،

وتنصت . .

بقلبك ستنصت إلى صـوت حبـات الماء تهـوي من سـقـوف المغارة السرية المختفية في جوفك . . وفي قلب صمتك ستستشعر ألما من تشققٍ في داخلك ، يبدأ وخزاً صغيرا ، ثم يتغلغل عميقا

يفتت الكلس الهش الكامن بين الروح والجسد . هناك في ذلك الصدعِ الداخلي ، تحلُّ روح المغارة في روحك . فيصير ما كان انتشاءً قبل حين ؛ تحليقاً حُرّاً في الفراغ المهيب بين سقف المغارة وبحيرة الماء في القاع السحيق . هنالك يضرب طائرك بجناحيه ، فيتردد صدى نشيد التكون الأول .

بهذا الشعور ، وعلى السلالم التي اصْطُنِعَتْ لتُسهِّل مسير السُّيَّاح ؛ استأنفتُ السيرَ في المغارة ، كائنا ترابياً يلج جوفا فسيحا في قلب جبل صغير ، وحين يمرُّ من أمام أصغر صاعد صخري في المغارة وينظر إليه ؛ ينظرُ إلى كائن صخري لا يقلُّ عمره عن مليون سنة .

مغارة جعيتا كَوْنٌ من المتدلِّيات والصواعد التي شَكَّلها حلولُ الماء في الصّخر ، وانبثاقُ الصّخر من الماء . أَشكالٌ تمرِّن الخيالَ ليركضَ خلف الفكرة الكامنة في تشكيلات صخرية قاهرة في الحُلُميَّة والغرابة والجمال ، تفيض بالمعنى ، توشك أن تتحرك أو تنطق ، تتابعها واحدا بعد واحد في مسار السبعمائة متر ، عند كل التواء أو استدارة سرٌّ جديدٌ ، ودهشةٌ فريدة . . ملاكٌ مُجَنَّح ، حقلُ فطر تتوسطه زهرةُ عبّاد شمس ، عروسٌ بفستان دانتيل لؤلؤي ، درويشٌ راقصٌ في تَنُّورة مرفرفة ، عشٌّ عصفور عملاق ، عناقيدُ فاكهة خرافية ، نسوةٌ باكياتٌ ، قبابُ قلاع قروسطية ، قطيعُ غيلانٍ كماً في الحكايات القديمة ، صبايا يغتسلن تحت شلال . . وتكوينات أخرى يعجز خيال النحَّات عن فهمها . . كل ذلك في المغارة التي ظلت مجهولة معتمة لملايين السنين لم تنكشف لبشرٍ إلا من مئة سنة أو يزيد ، فمن أسرَّ للصخر بأسرار ما يجري خارج

الجوف؟ ومن علَّمَ الماء أسرار المحاكاة؟
هنا سأتوقف . .
هنا سأصمت .

١٨- فتنة الأعالي

كان الخروج من المغارة يخلف شعورا من ذلك النوع الذي يحدث أن نجربه في أوقات متباعدة ونادرة ، حين نخرج في المكان من زمن إلى زمن ، شعور كثيف تنتبه له تلك الحاسّةً المجهولةُ النائمةُ فينا .

في الطريق إلى بلدة حريصا ، شرع أبو وليد في سرد ما تهيأ له من الأشكال في المغارة ، أشكال كثيرة ، وأظرفُ ما رواه ؛ كان عن صاعد صخري رآه في صورة سيخ شوارما تركية ، وصفه وصفا يوقظ الجوع ، تفقدت زادي من الخبز ، والجبن ، والبصل الأخضر ، وأخرج هو من جعبته فطائر (السمبوسك) المقلية في الزيت ، المحشُوَّة بقطع الدجاج ، والبصل ، والفلفل ، والباذنجان ، والكوسا (القرع) . أخرجها ، وهو يخبرني أنها من صنع يديه ، شارحاً الطريقة التي يتبعها قومُه التركمان في إعدادها .

أبو وليد جندي متقاعد ، يقيم في شقة مشتركة مع رفاق المهنة في ضواحي بيروت ، يسافر مرتين في الشهر إلى قريته الكواشرة بقضاء عكار ، شمال لبنان ، حيث تقيم زوجته وولداه ، قرية كل سكانها من التركمان الذين خلفتهم السلطنة العثمانية وراءها ، وتخصهم الدولة التركية في السنوات الأخيرة ببعض الإعانات والخدمات الاجتماعية ، دون أن تمكنهم من نيل

جنسيتها ، وأكثرهم يشتغل بالزراعة أو ينخرط في صفوف الجيش ؛ أُسْوَةً بفقراء الطوائف الأخرى في هذا البلد .

أخذ الطريق منا إلى بلدة حريصا نصف ساعة . حين وصولنا تحرر أبو وليد من صحبتي ، ودخلت أنا إلى محطة التيليفيرك الذي يصعد إلى قمة التلة ، أخذت دوري أمام شباك التذاكر . كان الطابور طويلا وبطيئا ؛ ما جعل المنتظرين حريصين على الانتباه لمتسلل من هنا أو هناك . على حائط مواجه انتبهتُ إلى لوحة معلقة تحمل عبارة : (الهوى ما بينشرى) شعاراً من جمعية مدنية لما يبدو أنه حملة دعائية ضد الدعارة والاتجار بالجنس . تأملتها وأنا أخمن أن المنطقة بطبيعتها السياحية ، وموقعها المشرف على البحر ستكون مُعرَّضة ، لا شك ، لهذا النوع من الأنشطة .

انتبهت من شرودي في اللوحة لأجد بجانبي مراهقين اثنين ، غافلاني وتسللا إلى الطابور ، رمقت واحدا بعين مستغربة ، فاستبقني بابتسامة متضرِّعة . بادلته الابتسامة مع عتاب لطيف : « . . **ولكن أنت تعرف أن هذا لا يجوز** » ، احمرّ وجهه من الخجل ، وطأطأ رأسه علامةً على الإقرار بالذنب . فيما ظل صديقه يهرب من نظراتي إليه . كانا في عمر الثالثة عشرة أو أقل ، يلبسان جديدا ليس بالغالي ، ويضعان مَرْهَماً على شعريهما المُسَرَّحين على طريقة نجوم كرة القدم . لم تكن تبدو عليهما آثار نعمة تتيح لهما القدوم إلى هذا المكان ، سألتهما عن صفهما الدراسي ، فأجابني الثاني أنهما لا يدرسان .

الفتيان سوريان ، ابنا عمومة ، فرَّتْ عائلةُ الأول منذ ثلاث سنوات ، بعدما أنفقت ما ادخرته عند حواجز النظام لتؤمن

خروجها من سوريا إلى لبنان، وهي تنزل في بيت الثاني الذي كان مقيما هنا منذ سنوات، فكان على الفتى أن ينقطع عن الدراسة ويعمل إلى جانب ابن عمه في محل لصباغة السيارات.

وصل دورنا، أنا والمتسللان فخصَّنا العاملُ بعربة. ما إن انطلقتْ معلَّقةً في الهواء؛ حتى حبس الأول أنفاسه، وبدا على وجهه رُهابِ الأماكن العالية، فيما اصطنع الثاني برودة الأعصاب، وهو يخبرني بنبرة زهو أنه جرَّب الركوبَ مرتين من قبل.

مع ارتفاع العربة أكثر بدأ الفتى يتغلب على ارتباكه، وصار ينظر إلى أسفل، حيث منظر أشجار الصنوبر الشاهقة التي تغطي التلة المشرفة على البحر. تدريجيا استعاد هدوءه، فطلعت من وجهه ابتسامة من سعادة حقيقية قادمة من الأعماق، سعادة طفل رأى أهوال الحرب، ونزح مع عائلته إلى بلد آخر، تاركا المدرسة والحيَّ والطفولة كلها، ليشقى مثل الكبار، ويؤمِّن مبلغا ليس هينا على من هو في مثل ظروفه؛ كي يعيش تجربة الارتفاع هاته، بكل ما تثيره الأعالي في الروح من لذة مفعمة بشعور الحرية.

١٩- تذكار الطمأنينة

وصولا إلى رأس التلة تفرغ العرباتُ ركابها، فيستكملون سيرهم بين حدائق صغيرة مهيأة تحت ظلال الصنوبرات المعمِّرة. في أعلى القمة ترتفع منارة حدباء لتمثال «سيدة لبنان». العذراء الواقفة، المكللة بالنجمات، المتشحة بالبياض، الفاتحة ذراعيها،

تلقي نظرة أمومية حانية على البلد اليتيم .

صاعدا الدرج الذي يقود إلى التمثال لمحت وجوها للمصريين الذين صادفتهم من قبل في المغارة ، كانت صلواتهم عند أقدام التمثال تصدِّق حدسي السابق . ومن جديد لمحت صديقيَّ المتسللين يصعدان الدرج الحلزوني الموصل إلى تمثال العذراء ، كأنما يبحثان عن أعلى ذُرْوَة ، وأقصى ارتقاء . من هناك سيشهدان البرَّ وهو يندلق في البحر من جانبين ليُكَوِّنَ خليجاً أزرق ، تصطف على شاطئه عمارات بيض ، ينحسر عنها أخضر الصنوبر الصاعد على التلة الجبلية .

على مسافة قصيرة وفي نفس الصعيد من التلة توجد تحفة معمارية ، تأخذ سقوفها شكل أرزة عملاقة مستلقية ، كانت تنبعث من داخلها موسيقى وترانيم قداس السبت ، سبت النور .

دخلتها تسبقني مجموعة من السياح الهندوس المعمَّمين رفقة نسائهم . . اصطفيت مكانا قريبا من جندي مسلح يحرس بوابة الكاتدرائية ، وأخذت نصيبي من الطمأنينة المهيمنة على المكان . وحدث ثانية أن استعدتُ فقرة شعر حاولتها قديما :

شفتان فوق الجبين
والأصابع اشتبكتْ .
وجهكِ مليء بالشعر ،
وفي العينين فرحْ .
يا أمنا العذراء ،
ادخلي غرفتنا ، وارقدي ليلتين
يا أم السيد ، شُقِّي نهراً

وازرعينا على الضفتين
زيتونة واحدة ، وحقل زعترْ .
في الليلة الثالثة
سينزل الروحُ حاملا كِلْمته ،
فاحملينا إليه تَذكارا .

خرجتُ من الكاتدرائية ، عائداً نحو محطة العربات لرحلة الإياب ، في طريقي إليها وقعت عيناي على قرص طين موضوع على حجر ، تفحصته فوجدته تربة كربلائية من التي يسجد عليها الشيعة في صلاتهم . خمنت تفسيرات كثيرة لوجود هذه القطعة هنا . . في النهاية ألقيتها في جيبي تذكارا من المكان ، وغادرت بكل طمأنينة .

٢٠- تاريخ تحت المطر

وجدت أبا وليد ينتظرني في السيارة ، صارت الوجهة الآن نحو مدينة جبيل . إليها انطلقنا عبر منحدرات تتعرَّج نحو الأوتوستراد الساحلي الذي يربط بيروت بطرابلس شمالا ، في الطريق لمحت عارضة ضخمة تشير لمبنى المكان الذي كان في وقت ما ، وتحديدا في ستينيات القرن الماضي ، رمزا من رموز رفاهية هذا البلد الشرقي المشرع ـ أكثر من أي شقيق له ـ على التأثيرات الغربية ، فكان وجهة تنجذب إليها أنظار الأوروبيين والأميركيين الشغوفين ببريق الشرق ، وتحج إليها قوافل أثرياء الجوار الطافر بالنفط . كانت العارضة لمبنى كازينو لبنان ، الذي كان يبدو مثل

رقعة مقتطعة من لاس فيغاس في سويسرا الشرق ، هنا كانت تُشْهَدُ سهراتُ نجوم الموسيقى والطرب ، وتنظم مسابقات ملكات جمال العالم ، ويتحلق أمراء وأثرياء حول طاولات القمار ، حدث ذلك واستمرّ لسنوات ، حتى هبت ريح الحرب السموم ، فعصف عجاجُها الملتهب بذيَّاك البريق .

بعد نصف ساعة وصلنا إلى مداخل مدينة جبيل ، موطن الفينيقيين ، ونبعة الأبجدية الأولى . المدينة التي ظلت مأهولة لأكثر من ستة آلاف سنة ، فكانت تبنى وتهدم ، ثم يعاد بناؤها بنفس الحجارة من جديد .

وصلنا إلى موقف للسيارات ، ذهب أبو وليد يبحث عن مقهى ونرجيلة ، وانطلقتُ أطأ بقدمي حجارة تبلط أرضاً يتنازعها الأزل والأبد .

تحت سماء غائمة عبرتُ بابا في سور قديم ، ومررت بجانب محلات بيع التذكارات والتحف ، لأصل إلى القلعة التاريخية التي يتعلق اسمها باسم المدينة ، فهي تتوج تاريخها ، وتبدي الجزء الظاهر منه ، ذلك بأن ستة آلاف سنة تجعل المدينة ـــ كما تراها العين الآن ـــ واقفة فوق أحجار مدن أخرى . فينيقية ، وإغريقية ، وفارسية ، ورومانية بيزنطية .

من باحة ، أعلى القلعة الصليبية ، يطل الواقف على بقايا بيوت من العصر الحجري ، وأنصاب لمعبد وثني ، وصفٍّ من الأعمدة المكللة بتيجان ونقوش ، ومسرح روماني صغير . . وبيت مفرد مسقوف بقرميد أحمر ، يعود إلى أواخر القرن الماضي ، أبقت عليه هنا حفريات الآثاريين التي كشفت عن تلك المعالم المطمورة .

بدا المنزل وسط هذا الحشد من الأحجار ، مصفوفةً ومترامية ، والأعمدةِ ، منتصبةً وجاثية ، والأسوار ، واطئةً ومتلاشيةً ، مثل غريب بين حشد غرباء ، ينكرهم وينكرونه .

غادرت القلعة وسرت في اتجاه المرفأ ، ماراً بمسجد عثماني يعود في الأصل إلى العهد الأيوبي ، وما يلفت الانتباه هو أنه مسجد صغير جدا قياسا إلى هذا الصنف من العمائر ، لكأن جغرافية التاريخ المحتشدة هنا ، لا تمنح حيِّزاً لطارف الأجيال إلا بقدر ما ترك التالدُ من فسحة في المكان .

وصلت إلى مرفإ الصيد ، حيث تصطف على رصيفه مراكب صغيرة للصيادين ، على طرف منه بقايا برج عُلِّق بأعلاه علمُ لبنان . ناظرا إلى البرج والعلم ؛ رأيتُ للزمن شرفةً مفتوحة على الماضي ، تعبر منها مراكب قادمة من نهايات الأفق البحري للمتوسط العتيد ، لغزاة يشهرون رماحهم ، أو تجار جاؤوا يقايضون بضاعتهم بأرز لبنان وفخَّاره ، أو أرواح آلهة تعود إلى نواويسها المطمورة هنا . مراكبُ ترفع أعلامها فيرى ربابنتها من بعيد العلمَ الجديد المعلق على ما تبقى من برج المرفإ القديم .

ما بدأ زخات صار سيلا هتونا ، فكرت أن أحتمي بأقرب مطعم من مطاعم السمك التي تصطف قبالة الرصيف البحري ، ثم عدلت عن الفكرة ، لم يكن مقبولا مني في هذه اللحظة أن تعفس قدماي هذا الأديم المثقل بالماء والتاريخ معاً ، فأكملت سيري وئيداً تحت مطر كان يغسل أحجاراً تكتب تاريخَ المدينة الأم للكتابة .

٢١- أبناء أم نزيه، وبنات (أبو إيلي)

في طريق العـودة إلى بيـروت ، رنَّ عندي هاتف من ناجي ، يواعدني على لقاء هذه الليلة . كانت الساعة ثامنة حين وصلت إلى الشقة . لم يكن بها أحد من جيراني سوى فرح وماغي وهما تستعدان للخروج ، دردشة سريعة ثم سألتهما عن مكان يليق بسهرة سبت في بيروت ، مكان ليس بالصاخب حيث يمكن للمرء أن يتناول عشاء ويسمع طربا ، فأشارت عليَّ ماغي بمطعم اسمه بيت أم نزيه .

عند تمام التاسعة كنت أقف قريبا من الكوستا ، حيث نقطة الالتقاء التي لا أخطئها . لحظات وكان ناجي يصل رفقة صديقه علي ، الروائي والموسيقي المقيم متنقلا بين بيروت وجنيف . بعد تعارف سريع ، انطلقنا نذرع شارع الحمرا الذي يتلون في مثل هذه الساعة من كل سبت بكل ألوان الحياة . كان في بالي أن تكون الدعوة على حسابي ، فاقترحت على الصديقين الذهاب إلى المكان الذي أشارت علي به ماغي ، غير أني فوجئت بناجي يسبقني إلى اقتراح المكان نفسه ، وتلقيت منه بسبب هذه المصادفة سيلا من المشاكسة عن سحر المغاربة . فكنت أصده ساخرا بالزعم أنها بركة المغاربة! . حين وصلنا إلى المطعم ، وجدناه ممتلئا عن آخره ، إلا طاولة ذات ثلاثة كراسي ، كأنها كانت في انتظارنا ، وهنا شاكست صديقي بهذا الدليل المقنع عن بركة المغاربة ، التي لولاها لما وجدا فسحة في المطعم! لكنهما تبادلا نظرات ماكرة وردًّا في وقت واحد ردّاً لا ينفع معه أي زعم ، فالطاولة وكل طاولات المطعم تكون محجوزة سلفا .

المطعم قاعة كبيرة تتدلى من سقفها ديكورات تراثية بسيطة ، وحاملات إضاءة خافتة ، وعلى الأرضية طاولات وكراس من خشب ، مكثنا قليلا ، ثم قام صديقاي إلى المشرب في أخر المطعم يطلبان ما سنأكل ونشرب ، فأم نزيه إذ تقدم أكلا كأكل المنازل ؛ لا تستعمل نُدُلاً لخدمة الزبائن ، إلا حملة النارجيلات وموقدي جمرها . بعد قليل كانت الفرقة الموسيقية على المنصة المرتفعة في الركن تعزف موسيقى خفيفة ، بعودٍ مع غيتار ، وطبلة ، وناي ، وكمنجة ، ثم انطلق شاب هو فتى المنصةً ومُسَيِّرها بقفشات كانت تمتلئ منها القاعة بالضحك ، وراح يوزع على الطاولات ألواحا صغيرة من وجهين ، أحدهما يعبر عن الرضا ، والآخر عن الاستياء . لم أستوعب الأمر إلا حين نادى مُنسِّق المنصة من ورقة يمسكها على اسم زبونة ، فقامت إلى المنصة كي تؤدي عرضها الغنائي بمصاحبة الفرقة الموسيقية ، غندئذ فهمت الفكرة ، وراقتني طرافتها ، فكان الجمهور يرفع الألواح المعبرة عن الرضا للأداء الجيد ، ويرفع الألواح الأخرى في حال العكس . جمعٌ من شباب وصبايا وعائلات ، يأكلون ، ويشربون ، ويغنون ، ويطربون ، ويتسابقون على طريقة مسابقات الأداء التي تعرض في القنوات التلفزيونية ، فكان الجميع يتقاسم نفس المزاج ، في نفس الجو ، وعلى نفس الإيقاع المثير للفرح الليلي ، كأن الجمع عائلة واحدة من أم واحدة .

عند حدود الحادية عشرة ليلا التحق بنا خليل ، ثم غادرنا المكان تاركين سهرة أم نزيه مع أولادها مستمرة .

سرت في الشوارع مع الرفاق ، مشدودا إلى حديث عليّ نصار

عن كل ما يعرفه عن المكان ، وما كان عليه ، وما طرأ فيه . علي شاعر ومؤلف موسيقي وصاحب رواية «كل ما يعرفه بائع الكعك» كان يروي سيرة المكان ومعالمه ، يحكيها بذهن مهجوس بظلال المشاهد في رواية جديدة له تحت الطبع ، رواية «سيرة مسلم في حانة أرتين» .

استمر حديثنا ، سائرا بنا في شارع الحمرا ، وكلما مررنا على مطعم أو حانة شممنا نكهات أكل مختلفة ، وتنسمنا عبق نارجيلات فواحة ، وانتهت إلى أسماعنا إيقاعات موسيقات كثيرة ، لبنانية أو مصرية أو عراقية أو غربية . نبض حياة يقتنص المتعةَ ضداً على الاكتئاب الجماعي من سيرة البلد . باقتصاده المعتلّ ، وسياسييه المراوغين .

عند نهاية الشارع غربا ، سلكنا في شارع الكويت نحو عمارة في الواجهة ، طرق عليٌّ باب محل في طابقها الأرضي ، ودفعه فانفتح عن حانة لا تعدو أن تكون غرفة أعزب من عشرين متراً مربعاً أو أقل ، على طرفها ، يسارَ كل داخل من الباب ، يمتدُّ بارٌ تقف خلف صندوق حسابه سيدة فوق الستين ، ونادلة ثلاثينية بقَصَّة شعر مربعة ، ثم أربع طاولات متقاربة ، مزينة بكاريكاتورات لناجي العلي ، وما تبقى من محتويات المكان هو صور ، وقصاصات جرائد ، وأيقونات لنجمات حمراوات ، ومطارق ، ومناجل ، وبنادق ، وفوارغ خراطيش رصاص ، تغطي الحائط كله حتى لايمكن أن ترى قدر أصبع يد فيه . لم يكن في الحانة لحظة دخولنا سوى شاب وفتاة على الطاولة القصية ، ورجلان واقفان عند المشرب يحادثان سيدة البار . كنا ثمانية في المجموع لكن حانة أبو

إيلي تشعرك أنك وسط حشود من الناس ، أنَّى تلتفت تجد واحدا ينظر إليك . . تشي جيفارا مدخنا غليونه ، ماركس ، لينين ، تشي جيفارا يرفع فنجان قهوة إلى فمه ، ماو ، ستالين ، كمال جنبلاط ، جورج حاوي ، تشي جيفارا متأملا سيجاره الكوبي ، ياسر عرفات ، مهدي عامل ، جورج حبش ، تشي غيفارا يخطب في الحشود ، شيخ إمام ، ليلى خالد ، محمود درويش ، تشي جيفارا وسط الأدغال ، ناجي العلي ، سمير قصير ، فيروز ، زياد رحباني ، تشي غيفارا ، تشي غيفارا ، تشي غيفارا . . . . . . وصورة في إطار ، قد تكون أخر ما علق في المكان ، كانت للرفيق نايا شحود (أبو إيلي ١٩٥٧/٢٠١٦) الذي توفي العام الماضي ، تاركا صوره التي صفها بعناية ، وخصها بحنان كأنها بنات له ، مستأمنا عليها رفيقته تيريز أم إيلي ، سيدةُ البارِ الباسمةُ في حزنٍ ، الواقفة خلف المشرب عند صندوق الحسابات .

شربنا بالهدوء الذي تقتضيه ورقة الوصايا المعلقة خلف باب المدخل ، حرصا على راحة الجيران ، وقرأنا حكاية مكتوبة على ورقة ، عن شخص وملك وحمار ، سيموتون جميعا ، الشخص من الجوع ، والحمار من التعب ، والملك من التخمة .

عند الثانية صباحا انصرفنا من حانة أبو إيلي ، قلعة الحنين اليساري الكامنة في مبنى عمارة يعقوبيان ، في المنطقة الشهيرة بكراكاس ، غربي بيروت .

اليوم الرابع / الأحد ١٦ أبريل

٢٢- ترويقة السوسي ورائق ابن منظور

لأني تأخرت عن الموعد المتفق عليه صباحا مع أبي وليد ؛ أيقظني رنين هاتفه ، عدت للاتصال به معتذرا له ، متواعدا معه على اللقاء جنب العمارة خلال دقائق ، حزمت حقيبتي سريعا وخرجت لأجده في انتظاري يشارك أبا ثائر قهوة صباحه .

ركبت السيارة بذهن غَبِش ، ومزاج مكدر من أثر سهر الأمس ، وزاد ذلك أني قد أصبر على كل جوع إلا جوع الصباح ، فرجوتُ مرافقي أن يبحث لنا عن مطعم قريب قبل أن نبدأ الرحلة نحو محافظة جبل لبنان ، تحديدا دير القمر ، وبيت الدين .

عبرنا شوارع واسعة ، وأزقة ضيقة ، تكاد تكون خالية إلا من مجموعات الفتيات والنساء الأسيويات العاملات في البيوت ، يخرجن صبيحة عطلتهن الأسبوعية في كامل أناقتهن لحضور قداسات الأحد . بعد عشر دقائق كنا نقف أمام دكان شعبي ، أول ما لفت نظري اسمه ، «مطعم السوسي» ، هل هي الصدفة الكاذبة لتشابه الأسماء؟ أم أن أحداً من أهلنا في منطقة سوس ، جنوبيّ المغرب ، قد مرَّ من هنا؟ وهم المشهور عنهم البراعة في الطعامة الشعبية ، كما التجارة والأعمال ، أم أن أبا وليد قصد من اختياره هذا شيئا؟ حين سألته ؛ أفهمني أن المحل شعبيٌّ ، وخدمتُه من

أبسط ما يكون ، لكنه شهير بشهرة من ارتادوه ، من السياسيين والفنانين والأدباء ، وأخبرني أنه سمع ممن يثق في روايته أن فطور هذا المطعم نال قبل سنة الرتبة الأولى من بين أفضل مائة فطور في مطاعم العالم .

طلبنا (ترويقة) وهو اسم الفطور بالمحكية اللبنانية ، اسم ذكرني بلغة عند أهل شرقي المغرب ، إذ يسمون فطور الصباح (التِرياق) وهي تناول الرائق ، والظاهر أن المعنى العام فيها يقع على ما يُتَناول صباحا على الريق ، لكن الطباخ في المطعم كان له رأي آخر إذ شرحها لي على معنى (الرَّواق) بقاف ينطقها اللبنانيون همزة ، ويعنون بها الرَّوْقَ والرَّوَقَان ، بمعنى الصفاء ، يكون في الذهن أو الماء .

كانت الترويقة مكونة من طبق فول مدمس معصور عليه قليل من (البوصفير) النارنج ، وطبق فَتَّة ، وهو حمص مسلوق ، يُطْهَى مع قطع خبز مُحَمَّص ، ولبن زبادي ، ويزين بلبٍّ صنوبر ، ونعنع مجفف ، ويصب عليه زيت زيتون .

والطبق الثالث كان (بيضا بالقَاوَرْمَا) وهو بيض يُقلى في دسم من ألية الخروف مع قطع لحم مفروم مُتَبَّلٌ بفلفل ، وقرفة ، وكمون ، وقرنفل . وللقاورما مذاق قوي كالذي نجده في أكلة (الخليع) المغربية مع البيض .

وأما الطبق الرابع فهو (المسبحة) ، وهي خليط من حمص مدقوق ، ولبن ، وطحينة ، يزين بحبات حمص من فوق ، ثم يسقى بزيت زيتون ، ويُرَشُّ بالكمون . وعلى ذكر الطحينة ؛ فهي مدقوق سمسمٍ مُحَمَّصٍ مع دقيق قمحٍ يُمزجان مع زيت نباتي

حتى يصيرا خليطا واحدا يستعمل في أكلات كثيرة .

على الطاولة كانت هناك أطباق فيها زيتون أبيض وأسود ، وقطع طماطم ، ونعناع أخضر ، وبصل ، ومخللات .

مع شاي أسود ، غنمنا ترويقةً فوق طاولة على رصيف زقاق ، ابتلَّ بها الريق ، وصفا بها الذهن ، فاجتمع المعنى الذي أراده طباخ السوسي بالمعنى الذي يذكره أصحاب ابن منظور الإفريقي .

٢٣- رجلان وحلم واحد.

انطلقنا من دكانة السوسي في اتجاه حارة الناعمة على الطريق الساحلي الجنوبي الذي يربط بيروت بصيدا ، عبرنا من بلدة الدامور ، ثم ملنا يسارا في اتجاه بلدة بيت الدين ، مركز قضاء الشوف في محافظة جبل لبنان .

في الطرق الجبلية التي تخترق التلال صعودا ونزولا ، كان مشهد أشجار الصنوبر والبلوط والأحراج يقدح في الذهن والعين انطباع الالتفات في زمن واحد نحو مكانين ، مشهد يرسم شَبَهَها كاملا مع الطرق التي تعبر جبال الأطلس المتوسط في المغرب ، فيخيل للناظر أن لبنان شقيق إفران ، كأنهما قُدّا من جغرافية واحدة .

بعد ساعة ونيف كنا على مشارف دير القمر ، بلدة الحجر المائل إلى الصفرة ، يخالطها سوادٌ من قدامة الزمن . بلدة القرميد الأحمر يكسو البيوت والقصور وصوامع الكنائس ومنارة المسجد اليتيم . بلدة تستلقي على تلة مثل أميرة من أميرات الشرق في القرون الوسطى . هكذا يداخلك الشعور بها من أول وهلة ، بعد أن

تكون قد قرأت على إشارة طريق في مدخلها عبارةً تخبرك أنك تدخل «عاصمة الأمراء» .

شهدتْ هذه البلدة الفصولَ الأولى لقصة الميلاد الأول للقومية اللبنانية ، وكان ابتداء ذلك من شعور بالرغبة في الاستقلال عن الهيمنة العثمانية ، شعورٌ خامر رجلا كان سليل بيت أميري من طائفة الدروز ، يدين بالولاء للسلطنة العثمانية ، وقد كان جده سعى إلى تحقيق تلك الرغبة من قبل ، لكن الحفيد فخر الدين المعني (١٥٧٠- ١٦٣٥م) الذي حمل اسم جده ، سيحمل حلمه أيضا ، وسينجح في بسط نفوذ إمارته على أجزاء واسعة من بلاد الشام التاريخية (سوريا ولبنان وفلسطين) ، وينجح في تحقيق نقلات اجتماعية واقتصادية وعمرانية جعلته مؤسسا فعليا للقومية اللبنانية . وإن كان هذا المغامر قد شابه جدَّهُ في الاسم والحلم ؛ فقد شابهه أيضا في المصير المأساوي . حيث أعدم مع ثلاثة من أبنائه في الأستانة .

انطوت صفحة فخر الدين المعني ، لكن الميراث الأميري سيستمر من بعده ، ثم ينتقل من الأسرة المعنية إلى الأسرة الشهابية ، التي ستسير على المنوال نفسه في حكم البلاد تحت المظلة العثمانية ، مع تحيُّن أي فرصة للاستقلال التام عنها باستغلال ضعف الرجل العثماني الذي كان المرض قد بدأ يدب فيه أوصاله .

في قلب البلدة ميدان فسيح ، تتوسطه نافورة ماء ، يشرفُ عليها قصر الأمير فخر الدين ، وفي مبنىً متفرع عن القصر متحفُ شمع يعود إلى عائلة تنتهي أنسابها إلى بقايا الصليبين ، وقريبا منه

مبنى تراثي يحتضن المركز الثقافي الفرنسي ، وقد كان في الأصل مخازن للبضائع والسلاح ، أو للمؤونة التي كان الأمير يوزعها على رعيته ، وبمحاذاته درج صعدته ، فوجدته ينتهي بمبنى كنيس يهودي يعود إلى نفس الفترة القريبة من تأسيس المسجد ، أي زمن الأميرين ، الجد والحفيد ، وهو أمر يستوقف البال . بلدة مسيحية مارونية خالصة ، يحكمها أمراء دروز ، تنتشر فيها كنائس مقدسة ، ويوجد بها مسجد سُنّي ، وكنيس لليهود . حدث ذلك بين القرنين ١٦ و١٧م .

انطلقتُ أتسكع في أزقة شبه خالية ونظيفة ، يضفي عليها بِلاطُ الحجر رونقاً خاصا ، بين بيوت أكثرها من طابق واحد ، تتعرش من سقوفها ياسمينات ، وتتدلى أصائص أزهار وورود ، وتنفر من بين شقوق أحجارها نبتات صغيرة تتنتصر بهشاشتها على الصلادة والزمن . بيوتٌ يعود كثير منها إلى أكثر من قرنين ، ظاهرٌ عليها الترميمُ والعناية . وكل ذلك يجعل البلدة متحفا تراثيا ، يوقظ التّسكُّعُ فيه بالمفرد خليطا من انطباعات الالتفات في الزّمن ، تطفو على الذهن حالَ رؤية مكان ماضوي يستمر حيّاً في حاضرنا بكامل أوصافه الأولى ، وتمام رونقه المتجدِّد . انطباعاتٌ شبيهة بتلك التي تخامرنا داخل الأحلام ، وهي هنا في دير القمر ، تحديدا ، انطباعاتٌ ذات إشراق أكثر ، ونبض أقوى ، ربما من فصول الحكاية التي تتراءى من وراء الظلال ، حكايةِ مَجْدِ رجلين من زمنين مختلفين ، عاشا في هذا المكان ، وعانقا حلما واحدا .



٢٤- قصر العاشق

صاعدا من أسفل التلة ، نحو الميدان ، حيث كنت تركت أبا وليد ينتظرني في سيارته ، إذ بي أصادفه عند رصيف دكانة تتفرع عن أحد البيوت ، يعرض فيها صاحبها أنواعا من الكبيس ، وهي مخللات خيار ولفت وفقوس ، وأصنافا من الأعشاب كالزعتر والقصعين (المريمية) والسمّاق ، وأشربة توت وجلاّب ودبس رمّان وخرُّوب ، بالإضافة إلى أكلات سريعة من عمل البيت ، مناقيش من كل الأصناف ، يُخَيِّرُكَ الطاهي في تشكيل حشوة عجينتها بين زعتر ، أو لحم ، أو تونة ، أو بيض ، أو جبنة بأنواعها الكثيرة . عدا عن المناقيش التي يمكن أن يكون أساسها حلواً ، ففي هذا البلد قد تصادف بعد كل مائة متر مطعما أو دكانة أو كشكا يقدم المناقيش ، ويعلن عنها بافتخار حين تكون (مناقيش على الصاج) ، والصاج قطعة المعدن المقعرة التي تنضح فوقها رقاقة الخبز من فورها ، وإلا فهي محفوظة سيعاد تسخينها .

أصبنا في المحل منقوشتين ، واستأنفنا رحلتنا شرقا نحو بيت الدين . بعد كيلومترات معدودة على الطريق ، استوقفنا بناء صخري يشبه القلاع القديمة ، يحمل اسم صاحبه (قصر موسى) .

موسى طفل من مواليد ثلاثينيات القرن الماضي ، سوري المولد ، كان يعيش مع أسرته الفقيرة في بيت من طين ، ويحب فتاة في حرقة وعجز . خلال حصة درس طلب فيها المعلمُ من تلاميذه رسم عصفور على شجرة ، كان موسى يرسم قصرا لفتاته ، فكان عِقابُه (فلقةً) غادر بسببها المدرسة ، لينطلق في رحلة حياة مليئة بصنوف من الكفاح اليومي ، دون أن ينطفئ حلمه ببناء قصر أحلامه . حين تهيأت له الظروف شرع في بناء القصر بمفرده . لأكثر من خمسين سنة كان موسى يضع حجرا فوق حجر ، آلاف الأحجار ليس بينها اثنان يتشابهان ، على كل حجر نقش يميزه ، مثلما جمع له من التحف ما جعله متحفا لأساليب العيش ، يعرض بتماثيل ومنحوتات لحياة الأفراد في المجتمع اللبناني خلال القرن التاسع عشر ، وهو أكثر من ذلك متحفُ أسلحة زاخر ، يضم أكثر من ستة عشر ألف قطعة سلاح ما بين مسدساتٍ ، وبنادقَ ، وسيوفٍ ، وخناجرَ ، تعود في أغلبها إلى الفترة العثمانية ، والانتدابِ الفرنسي .

قصة موسى مع قصره فيها على الكفاح والتصميم الفردي مثالٌ واقعي وصارخ ، لكنها ظلت منقوصة من فصلٍ أخير لم تكتمل به إلا في اللحظة التي دخلت فيها القصرَ سائحةٌ قادمةٌ من بروكلين بالولايات المتحدة ، كانت السائحة هي نفسها الفتاة التي أحبها الطفل موسى المعماري .

٢٥- بيت الدين والدنيا

بعد أقل من ربع ساعة وصلنا إلى بيت الدين ، قصدنا قصرها الشهير ، الذي بناه الأمير بشير الشهابي الثاني (١٧٨٨-١٨٤٠) ، ناقلا مركز الحكم من دير القمر إلى هنا . وظل القصر مقرّاً للحكم بعد إلغاء الإمارة والانتقال إلى نظام القائمقامية ، ثم نظام المتصرفية من بعده ، ثم تحول إلى مصيف للحكومة بعد إعلان الجمهورية سنة ١٩٢٦ ، وانتقال العاصمة إلى بيروت ، وقد استمر الأمر بعد الاستقلال عن الانتداب الفرنسي سنة ١٩٤٣ ، حيث كانت دوائر الحكومة تنتقل صيفا إلى هذا القصر ، وتدار منه . لقرنين من الزمن كانت قرارات الحكم ومصائر البلد تخرج من هذا المكان ، حيث يرقد جثمان صاحبه الأول ، بعد نقله من إسطنبول التي كان قد مات منفيا فيها .

دخلتُ من بوابة للقصر ، تزينها أحجار صقيلة ، ملونة ، ترسم خطوطا يتوازى فيها اللونان البُنّي والرَّملي ، يتوالى أحدهما فوق الأخر حتى يبلغا رأس القوس فيتعامدان . تفضي البوابة إلى رواق طويل ، يتوسطه صفّان من الأعمدة المربعة المبنية من صخور مستطيلة وخشنة . يبدأ كل عمود من تحت مستويا ثم ينحني صعودا إلى أعلى ليؤلف مع العمود الذي يقابله سقفا معقوفا على النمط الفينيقي في التسقيف . في الرواق باب يقود إلى ساحة واسعة ، هي الساحة نفسها التي تقدم فيها عروض المهرجان الشهير .

يتألف القصر من مبنيين متجاورين ، مؤلفين من طابقين ، لكل واحد واجهة تطل على الساحة من خلال صعيد ذي أقواس

دائرية ، يقود إليه درجان من يمينه ويساره . في أسفل المبنى الأول ، ويطلق عليه الدار البرانية ، إسطبلات ومخازن ، فيما يشتمل مستواه الثاني على مضافة بها قاعة مُتحف يحتوي على قطع من الفخار والزجاج ، تعود إلى العصرين الروماني والإسلامي ، وأما المبنى الثاني ، وهو الدار الوسطى ، فبه إيوان أميري ، من أعجب ما يكون زخرفةً ونقشاً وتطعيماً وتزييناً ، تراه في الرخام ، أو في خشب الأرز ، أو على الزجاج ، ويشتمل هذا المبنى على جناح للحريم ، وغرفِ حمامات شرقية .

تجولتُ في المبينين مأخوذاً بفخامة المكان ، لا أكاد أرفع عيني عن زوايا الجدران ، وشبابيك الغرف ، وسقوف الأروقة ، لما فيها من الإتقان البديع حين يكون شرقيا تخالطه سماتٌ رومانية ، وعثمانية ، وأندلسية ، وأوروبية من عصر النهضة .

وأما حصة الدهشة الكبرى فكانت حين نزلت إلى الطابق الأول للدار الوسطى ، والذي يشبه في شكله طابق أرض الدار البرانية ، بسبب أن كليهما كان عبارة عن إسطبلات للخيل ، هناك وجدت قاعتين تتصلان بباب مقوس يُجسِّر بينهما ، وتضمان تحفا من الفسيفساء الضخمة الأحجام ، تعود إلى القرون الأولى للميلاد .

خرجت من القصر المطل على قمم وغابات جبال لبنان الغربية ، أكاد أسمع ورائي أصداء أصوات سكان قصر بيت الدين ، مَنْ عاشوا دنياهم هنا ، مِنَ الأمراء والأميرات والفرسان والوصيفات والخدم .

٢٦- ٥٨٨٨ - لبنان / الإنسان

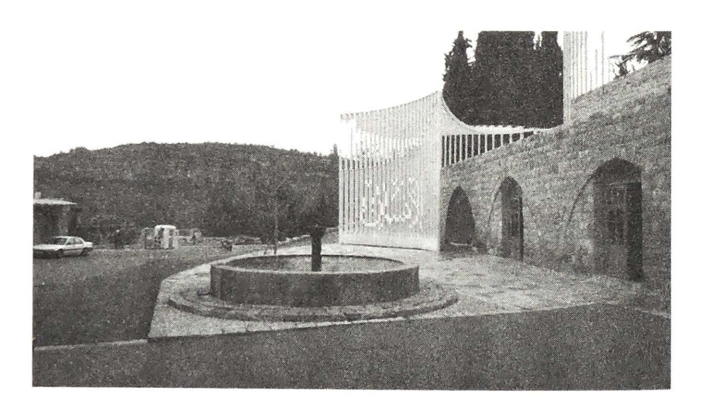
على نفس التضاريس الجبلية المتعرجة ؛ ظلت السيارة لثلث ساعة تتمايل بنا على الطريق الصاعد من بيت الدين نحو المختارة ، وصلنا مشارفها ، وسرنا في الاتجاه الذي يقود إلى قصر المختارة ، بيت آل جنبلاط التاريخي ، والذي يقال إن ابتداء تأسيسه كان أوائل القرن الثامن عشر ، استوقفنا حاجز لعناصر أمن خاصة ، فقدمت نفسي وأعربت عن رغبتي في زيارة القصر ، أخذ عنصر الأمن الخاص تعليمة بالموافقة من قائده ، وترجَّلْت من السيارة يرافقني شاب بزي درزي ، (الشروال) والقميص أسودان ، والقلنسوة على الرأس بيضاء . قادني الشاب عبر ممرٍّ من إسفلتِ حصىً مائل إلى الحمرة ، بمحاذاة مبنى من طابق واحد متفرع عن القصر ، له بابان من زجاج حديث الطراز ، اقتربت منه فوجدته مسجداً يحمل اسم الأمير شكيب أرسلان ، يقوم على جوانبه ، وفوق سطحه ، نصبٌ تشكيلي أبيض اللون ، مُشَكَّلٍ من قضبان ، بينها خطوط كتابة غامضة .

واصلنا خطواتنا نحو باحة انكشفت لنا منها واجهةٌ بديعةٌ لقصرٍ مترامي المباني ، يعلو طابقَه الثالثَ قرميدٌ أحمر ، وتبرز منه شرفاتٌ مسقوفة محمولة على أضلاع صخرية مثلثة . على جنبات الباحة حيث وقفت ؛ تنتشر أشجار مُعمّرة شامخة . وتمتد في وسطها قناة مياه جارية ، سألت مرافقي عنها فأخبرني أنها مستقدمة من نبع جبلي ، تعبر خلال القصر ، وتكمل مسارها نحو مَصَبِّها ، مخلفة موسيقا ماءٍ تُسْمَعُ في الأرجاء . صعدنا درجا نحو الجزء الذي يُسمح بزيارته في غياب (المعلِّم) ، قالها الشابّ وهو

يقصد النائب وليد جنبلاط ، فدخلنا ما يشبه غرفة بها رَفٌّ حجري وضعت عليه منحوتاتٌ مختلفة الأحجام ، أكبرها منحوتة لبوذا .

عدنا من حيث جئنا . على ممر الحصى . خطوات وسأبصر ما لم أنتبه له أول الأمر ، غرفةٌ ذات واجهة من زجاج ، رُكنت فيها سيارة مرسيدس سوداء ، رقم لوحتها (٥٨٨٨-لبنان) ، مهشمة وعليها آثار رصاص . ماكانت تراه عيني كان ينطبق في ذاكرتي مع الصورة الشهيرة لسيارة كمال جنبلاط التي كان يستقلها مع مُرافقَيه في طريقه من المختارة إلى بيروت ، صبيحة يوم ١٦ مارس ١٩٧٧ ، فكمن لها مسلحان ، ثم اعترضاها وسط الطريق ، ليطلقا نار رشاشيهما على رأس الزعيم السياسي .

عادت بي الذاكرة إلى ما كان يقتنيه الوالد من مجلات أسبوعية تعود إلى سبعينيات القرن الماضي ، حين بدأت أعي مضامينها ؛ صرت أطالعها ، وأعود إلى ما يحفظه الوالد في أدراج



مكتبته من أعدادها القديمة ، منها عرفت كمال جنبلاط ، ومنها أحببته . أحببت وجهه المتأمل الحالم ، ويساريته الصادقة البريئة ، وانتصاره لفلسطين ، ورؤيته الفلسفية للإنسان حين لا ينفصل عن مبدئه ، ولو كان الثمن حياته .

واقفا أتأمل مشهد السيارة ، أغمضتُ عينيَّ لبرهة ، أحيِّي الروحَ الجريحة المغدورة الخالدة . فتحتهما وتابعت سيري ، هناك أبصرتُ الكتابة التي عجزت عن تبينها من النظرة القريبة على النصب الفولاذي . . كانت الكلمة الغامضة واحدة ، حروفها سبعة ، ومعناها خالد . . كانت كلمة (الإنسان) .

اليوم الخامس / الاثنين ١٧ أبريل

٢٧- مزاج

صبيحة اليوم الخامس ، انطلقت مع سائقي من بيروت قاصدين نحو بعلبك ، لم يكن باديا من ملامح وجه كل واحد منا أي مزاج لتجاذب أطراف الحديث في هذه اللحظات ، على نحو ما كان يحدث في اليومين السابقين . هو كان يركز نظره على الطريق ، ونظري أنا كان مركزا على جوانبها ، أسابق سرعة السيارة كي لا تفوتني قراءة كتابات يدوية على جدران القناطر . . (طلعت ريحتكن/ وحوش الجبل مروا من هنا/ يطير الحمام ، يحط الحمام/ انتظرها/ هو الحب كذبتنا الصادقة/ حكومة الزبالة/ على هذه الأرض ما يستحق الحياة/ موسى الصدر . . .) . . استغربت من الكتابات لأنها بدت لي كلها بنفس اللون والخط ، فخمنت أن تكون من فعل مجموعة شباب مروا من هنا حاملين بخّاخات الغرافيتي ، يخط كل واحد منهم ما يَعِنُّ له في لحظته ، وحسب مزاجه .

بعد ساعة ونصف كنا ندخل شتورة ، بلدةٌ تتبع قضاء زحلة في محافظة البقاع إلى الشرق من بيروت ، تستفيد فيما يبدو من موقعها على الطريق السريع الذاهب إلى دمشق ، لما يعرفه من حركة كثيفة ، وإلى ذلك يعود تتابع محطات البنزين ، واستراحات المسافرين على الطريق .

أوقف أبو وليد السيارة عند كشك صغير يقدم القهوة بجانب محل لبيع كعك العصرونية . ونزل ليطلب قهوته (النسكافيه) ، فيما قادني الفضول إلى المحل الذي صرت أرى مثله في كل مكان منذ قدومي . كان المحل يضع لافتة كتب عليها (كعك أبو عرب ، ملك العصرونية) حتى اعتقدت أنها محلات تعود إلى مالك واحد اسمه أبو عرب ، حين سألت أجابوني أن الكعك نفسه يسمى بهذا الاسم ، وأن العصرونية صفة له لأن تناوله يكون على سبيل كسر الجوع في فترة العصر . وهو قرص خبز مجوف ، مكسو بحب السمسم ، وينتهي بحلقة تجعله شبيها بحقيبة يد صغيرة . يقبل عليه اللبنانيون بشكل لافت ، وفي كل الأوقات ، فيحشون القرص بعد أن ينضج بمكونات أخرى حسب الطلب ؛ جبنة أو مورتاديلا أو شوكولا . . .

غير بعيد عن محل الكعك كان هناك أخر للحلويات الشرقية ، يعرض صفا من أطباق الحلويات ، عرفت من بينها الكنافة ، لأني كنت أحتفظ في ذاكرتي بصورتها ولذة طعمها حين تذوقتها أول مرة في نابلس العام الماضي . والكنافة سميد يعجن بزبدة وسكر وحليب وماء زهر ، يُنضج في صينية داخل الفرن ، ثم يُفتّت ويُنخل ويُفرش فوق الصينية ، بعد أن يُجعل في طبقتين بينهما طبقة من الجبن أو القشطة ، فتوضع على النار من جديد حتى تنضج كليا ، وتُزين أخيرا بالفستق قبل أن تقدم ساخنة للأكل .

كانت هناك أطباق أخرى للمعمول ، وهو قطع صغيرة لعجينة من سميد أو دقيق محشوة بعجين التمر أو مدقوق الجوز أو الفستق ، يرش عليها بعد نضوجها سكرٌ ناعم .

لم أشأ أن أثقل على صاحب المحل ، فاكتفيت بسؤاله عن أسماء باقي الأطباق ، فكان منها المفروكة ، وعش البلبل ، وزنود الست .

اشتريت من كل صنف قطعة أو قطعتين ، وخرجت نحو السيارة ، حيث وجدت أبا وليد ينتظرني حاملا كأسين في يديه .

صعدنا إلى السيارة معا ، وشرعنا في تعديل المزاج بكعك أبي عرب ، وترميمه بكافيين النسكافيه ، وتجميله بزنود الست .

٢٨- الواقع والأسف

انطلقنا من جديد ، وقبل أن نبتعد كثيرا شاهدت على رصيف الطريق لافتة إعلانية لمتجر تعاوني ، يخبر بحَسْم لأسعار بضائعه لفائدة «الأخوات والإخوة اللاجئين السوريين الكرام من حاملي بطاقة WFP» (برنامج الأغذية العالمي) .

استنتجتُ من ذلك أن مخيما للاجئين السوريين سيكون قريبا من المكان ، فطلبت من أبي وليد أن يسأل أحد من المارة عن موقعه ، فأشار الرجل إلى اتجاه سرنا فيه حتى النهاية .

يقع المخيم على سهل في أطراف البلدة . خيمات صغيرة مربعة مسقوفة بألواح الزنك ، عليها إطارات سيارات مستعملة ، وبعضها الأخر مغطى بقماش مشمع ، اقتربت راجلا متهيبا لعلّي ألمح شخصاً أتحدث إليه ، لكن المخيم بدا خاليا إلا من طفلة صغيرة تلعب عند عتبة خيمة . عدت إلى السيارة ، وعرفت من أبي وليد أننا سنمر أمام مخيمات كثيرة للاجئين سوريين في طريقنا نحو بعلبك . سألته من باب الفضول عن رأيه في اللجوء السوري ،

فتنهد طويلا قبل أن يشرح لي أن البلد صغير ، ولم يعد يتحمل مزيدا من اللاجئين ، وأن الميسورين من السوريين يرفعون أسعار الشقق ، بينما عمالهم يزاحمون العمالة اللبنانية ويقللون الفرص أمامها ، وبأجور أرخص ، والأدهى عنده أن اللاجئين يستفيدون من دعم مؤسسات خيرية ، فقراء البلد أولى به . هكذا كانت أفكاره عن الموضوع . لما رأى ما يشبه الصدمة على وجهي ، بادرني بنبرة تحاول أن تصحح ما شعر أني فكرت فيه ، وعلي ألا أسيء الظن به فأعتقدَ أنها عنصرية منه ، أو أنه يكره السوريين ، فالمساكين ضحايا نظامهم السفاح ، لكنه الواقع مع الأسف .

حديث أبي وليد لم يكن في رأيي أفكاراً عابرة في ذهن فرد واحد ، إنما هو رأي متداول لدى شريحة واسعة . فقد ذكرني بقطعة من أحاديث جيران شقتي في أول لقائي بهم ، كانوا يكادون يجمعون على رأي واحد حول الموضوع ، حتى الجمل والمفردات التي استعملوها كانت متشابهة أو قريبة من تلك التي استعملها أبو وليد .

اللجوء السوري ، تطلق عليه دوائر الدولة نزوحا ، رغم أن النزوح يطلق على الهجرة الاضطرارية داخل البلد ، بينما تصير تلك الهجرة لجوءا حين تكون من بلد إلى آخر ، لكن الدولة اللبنانية تصر على نعته بالنزوح حتى لا يرتب عليها أية مسؤولية ، وفق ما يقتضيه القانون الدولي في هذا الأمر ، فضلا عن أنها ليست طرفا موقعا على صكوكه من الأساس ، وهو أمر حسب شذى مفهومةٌ حساسيتُه البالغة في بلد مثل لبنان ، فهشاشة التوازنات وخاصة ما يتعلق منها بتركيبة الديموغرافيا ، والسكان ، يجعل الجميع متوجساً من أي عامل جديد أو دخيل يؤثر فيها بمرور

الوقت ، فالمسيحيون يرون في السوريين مسلمين ، والشيعة يرون فيهم سُنَّةً . أما عماد فكان رأيه أنَّ الاقتصاد اللبناني لا يتحمل ، وساق دليلا على أصحاب القرار الاقتصادي ، الذين يخافون من منافسة الطبقة الصناعية السورية ، ويمنعون الترخيص لها بنقل صناعاتها إلى لبنان ، وحتى أصحاب المهارات الفنية من السوريين ممنوعون من مزاولة الأعمال بحكم قانون حكومي صدر منذ شهور ، باستثناء أعمال البناء والزراعة والتنظيف ، فيما كانت فرح ترى فيهم خطرا على أسلوب الحياة ، وضربت مثلا على ذلك حين عاكسها سوري في الطريق العام بسبب طريقتها في اللباس . عدا أنها ترى في أسلوبهم حدة لا يستسيغها كثير من اللبنانيين .

حين رددتُ أن كل ذلك لا يبرر الموقف ، وأن نفي العنصرية عنه قد ينزع القصدية منه ، لكن العنصرية تظل كامنة مادام الموقف يتجه نحو عموم جماعة مختلفة ، قلت هذا لأذهب بالنقاش إلى مداه الأبعد ، وأختبر قدرة شباب الشقة المتشبعين بالحداثة على تدوير الزاوية في موضوع شائك كالذي نناقشه ، أطرق الجميع برؤوسهم ، ففهمت من ردة فعلهم تلك دعوةً إلى تغيير الموضوع . فهمٌ أكَّدَته لي جملةٌ أخيرة من عماد ، شبيهةً بالتي قالها أبو وليد : «هذا هو الواقع مع الأسف الشديد» .

٢٩- تركيب مزجي

صغارا كنا ، في الصف الرابع الابتدائي ، حين سمعنا بالاسم أول مرة ، لم نكن نعرف معناه ، سوى أنه اسم لمدينة نسوا أن يخبرونا بمكان وجودها .

حدث ذلك في حصة النحو، أثناء درس الأسماء الممنوعة من الصرف، لعلة العَلَميَّة والتركيب المزجي.

من شتورة إلى أبلح، ثم دوريس، وصلنا إلى بعلبك بعد ساعة على طريق سهل منبسط، شاهدت فيها كيف يبرع السائقون في فنون التجاوز الخطير، والوقوف المفاجئ جنب الطريق، شيء مرعبٌ طمأنني إلى أن للمغاربة إخوة أنداداً لهم في هذا الأمر.

عند مدخل المدينة تباطأ سير مركبتنا بسبب زحمة السيارات عند حسينية السيدة خولة بنت الإمام الحسين، إذ صادف مرورنا وفود الزوار بكثافة على هذا المقام.

ركن أبو وليد سيارته على مقربة من موقع الهياكل الأثرية، بعد ذلك سرنا قليلا بين بيوت من طابق أو طابقين لنصل إلى الموقع الأثري، في منطقة كانت تعتبر معبراً للقوافل في زمنها، ومحطةً استراتيجية لتجارة روما، القوة العظمى التي أراد أباطرتها أن يظهروا في هذا المكان منتهى عظمة حضارتهم، ببناءات استغرق إتمام إنشائها ثلاثةَ قرون، فبنوا معبدا لجوبتر ملك الآلهة الرومانية، وآخر لباخوس صاحب الخمرة والاحتفال.

في مثل هذه المواقع وأمام هذه العمائر يشعر الزائر بالزمن البشري الذي يحصد أعمار الأجيال مثلما يفعل منجل عملاق في يد كائن خرافي، بإمكانه أن يحفر بالأصبع الصغير في يده أكبر وديان العالم.. يشعر الزائر بالصغر والصَّغَار، فإنْ هو تخلَّصَ من شعوره هذا بعد لحظات؛ عاد وقد أصابته حيرة أركيولوجية أمام هذه الأحجار الغرانيتية العملاقة، وهي ترتفع إلى علو شاهق

يعادل عمارة حديثة من عشرة طوابق .

تجولتُ في الموقع ، تابعتُ بأصابعي ما خلّفتْ حركة الأزميل في يد النحات وهي تحفر وجه أسد زائر يرمز للعدالة . . جلستُ القرفصاء عند عمود طريح الأرض . . تسلّقتُ حجرين عملاقين ، وفتحتُ ذراعين للهواء أجسُّ رديفه الذي كان هنا في الزمن الغابر . . صعدتُ درجاً واضعا الخطوة فوق أثر خطوة أتخيلها لكاهن قديم حاول هنا ذات يوم مشمس ، أن يفسر للناس ما الخلق ، وما الفناء ، وما الخلود؟

في أخر أشواط زيارتي ألقيتُ النظر بعيدا ، فارتدَّ إلي من كَرَّةٍ واحدة حسيراً ، وذلك من مشهد بنايات حديثة من طابق أو طابقين تُجَاوِرُ من قريب جدا هذه الهياكل العجائبية . . جعلني هذا التركيبُ المزجي لأزمنة متعددة في المكان الواحد أتفكر في الحيوات التي مرَّتْ ، تاركةً هياكلَ الجثامين راقدةً داخلَ نواويس الحجر ، ثم في حيوات القاطنين في البنايات القريبة ، تستهلك شوطها في دائرة هذا الوجود الذي يلاحقه منجل الكائن العملاق .

عدتُ نازلا الأدراج الأولى ، خلال ذلك عنت لي من جديد تلك الفكرة التي تهتف لي كلما زرت موقعا أثريا ، فهناك في بيتي الصغير ، رفٌّ أسميه رَفَّ الأقاليم القديمة ، أضع فوقه مسروقاتي . . حفنةُ تراب مقدسي من باحة المسجد الأقصى ، حجرٌ صغيرٌ من أهرامات الجيزة ، وردةٌ ميبسة من حديقة غرناطية . طأطأت إلى الأرض أراقب خائنة أعين قد ترمقني من يمين أو يسار ، ثم التقطت حجراً . . قبضت عليه بين يدي ودسسته في جيبي ،

وأكملت النزول أدندن لحنا فيروزيا :

يا قلبي لا تتعب قلبك ،
وبحبك على طول بحبك
بتروح كثير . . بتغيب كثير . .
وبترجع ع ادراج بعلبك .

٣٠- عسكر، وأمويون، وأرمن.

استأنفنا الرحلة ، قاصدين بلدة عنجر ، على نفس الطريق التي كنا قد أتينا منها ، عند بلدة رياق حيث كان علينا أن ننعطف كي نسلك في اتجاه الوجهة التي نقصد ؛ تاه أبو وليد بين الطرقات ، ووجدنا أنفسنا أمام ثكنة عسكرية للجيش اللبناني ، خفف أبو وليد السرعة ، وحيًّا حراسها الواقفين على الباب ، تقدم اثنان منهما نحونا ، استفسرهما عن الطريق فدلاَّه عليها .

كان العسكريان في مقتبل العمر ، مثل كثيرين كنت قد رأيتهم على الحواجز التي كنا نمر بها بين حين وحين ، وسط المدن أو عند مداخلها ، يحملون أسلحة ، أو يعتلون مركبات وعتاداً يبدو من ظاهره بسيطا وتقليديا ، وهو أمر ليس مستغربا عن بلد صغير المساحة ، كثير الطوائف ، قليل السكان ، ضعيف الموارد ، يقع وسط محيط إقليمي مفترس مستعد للانفجار في أية لحظة ، عدا عن أن الكيان الصهيوني سعى دائما إلى أن تكون جبهته اللبنانية ضعيفة وهشة . ففاته أن في هشاشتها تلك كانت مقاتله في مرات كثيرة .

رأيت على وجه أبي وليد بهجة صغيرة وحقيقية وهو يتحدث إلى الشباب ، ويودعهم شاكرا لطفهم ، وداعيا أن «يكون الله مع

الجيش اللبناني» . وحين أخبرته أنني مستغرب ومعجب بلطف عناصر الجيش الذين صادفتهم ، وكيف أنهم يردون على تحية المدنيين لهم بمحبة واضحة ؛ أخذ في سرد تجربة التجنيد العسكري التي قضاها في شبابه ، وكيف تعلم منها أشياء كثيرة ، وأن الجيش هو المؤسسة الوحيدة التي يمكن أن يجتمع اللبنانيون تحت مظلتها . «جيشنا يا صديقي بالرغم من أن بعضا من اللبنانيين (يستضعفونه) فهو بالنسبة لي ولكثيرين جيش شرف وتضحية ووفاء» ، قالها بنبرة عسكرية ، وتأسف على إلغاء التجنيد الإجباري لخدمة العلم .

مر الوقت سريعا بأحاديث رفيقي عن ذكرياته العسكرية . فكان أن وصلنا إلى عنجر . بلدة صغيرة تقع على أطرافها أطلال مدينة أسسها الأمويون على عهد الوليد بن عبد الملك ، تضم بقايا مساكن ، ودكاكين ، وقصر ، ومسجد ، مبنيةً كلها بأحجار كلسية وأخرى من الطين ، وتنتشر فيها الأقواس الإسلامية ، ولعلها الأثر العربي الإسلامي الأقدم في هذا البلد .

تجولت بين الأطلال ، يلازمني شعور مختلف ، كأنما أتجول في خراب ، ربما يعود ذلك إلى بساطة المعالم وخلوها من التعابير الهندسية والزخرفية التي كانت عيناي قد تعودتا أن تراها في المواقع الأخرى .

أكملت جولتي في غابة سرو صغيرة على طرف الموقع ، ثم عدت إلى حيث ينتظرني أبو وليد ، لننطلق بعدها نحو مركز البلدة ، حيث تنتشر مطاعم كبيرة يقصدها اللبنانيون خلال عطلهم من بيروت والمدن القريبة ، دخلنا واحدا منها وكان أشهرَها

وأكبرَها ، تنتشر في قاعاته الكثيرة وبين حدائقه مئات الطاولات وآلاف الكراسي ، في مشهد فريد وعجيب لما يشبه مهرجانا للأكل . تقدم فيه أصناف عديدة من الطعام اللبناني ، إلى جانب أكلات أخرى ، أرمينية على الخصوص .

عثرنا بعد لأي على طاولة شاغرة ، طلبت سلطة أرمنية ، وهي لا تختلف كثيرا عن شقيقتها اللبنانية ، مع صحن (مانتي أرمني) ، وهي قطع صغيرة من عجينة محشوة بلحم مفروم مع بصل وتوابل وقرفة ، تُصَبُّ عليها بعد نضجها في الفرن صلصةُ طماطم ، وصلصةُ حليب رائب مملَّح ، ثم تُنثر عليها أخيراً حبات لُبٍّ الصنوبر ، وأوراق أزهارٍ للنكهة والتزيين .

ينتشر الأرمن بتعدادهم الذي يتراوح بين مائة وخمسين ألفا ومائتي ألف في مناطق مختلفة من لبنان ، لكن عنجر تظل بالنسبة إليهم بلدة ذات رمزية خاصة ، وقصة ذلك تعود إلى أن خمسة آلاف فرد فارين من مطاردة العثمانيين لهم سنوات العشرين من القرن الماضي وصلوا إلى هذا المكان ، وأقاموا فيه خيامهم . فهم الأقلية في لبنان ، لكنهم في عنجر أكثرية ، يستمرون في النطق بلغتهم ، ويحافظون على تقاليد ثقافتهم ، كأنهم في أرمينيا ، بلدهم الأم .

اليوم السادس / الثلاثاء ١٨ أبريل

٣١- يوم جنوبي

صبيحة اليوم السادس ، كان الانطلاق من بيروت ، جنوبا نحو صيدا التي وصلناها بعد مسير ساعة ، قطعنا فيها نحوا من أربعين كيلومترا على طريق سريع ، عبر خلدة ثم الجيِّة ، فلم نتوقف إلا ونحن أمام الرصيف الذي يقود ـ سيراً على الأقدام فوق جسر من الصخور المصفوفة ـ إلى القلعة البحرية ، التي بناها فرسان المعبد الصليبيون في القرن الثالث عشر للميلاد . وعلى يمينها يمتد رصيف مرفإ تصطف فيه مراكب للصيادين .

أختار أبو وليد أن ينتظرني في مقهى من المقاهي المقابلة للبحر ، وانطلقت نحو القلعة ، تجولت بين معالمهما قليلا ، ثم عبرت الطريق نحو المدينة العتيقة عبر مدخل يقع فيه خان الإفرنج ، وهو بناء مربع ، مبني بأحجار رملية ، من طابقين ، أسفلهما كان مخصصا للدواب ، وأعلاهما غُرف ذات أقواس استعملت نُزُلا للتجار خلال فترة حكم الأمير فخر الدين المعني صاحب دير القمر . وجدت الخان قيد الترميم لتحويله إلى مركز ثقافي لبناني فرنسي .

سرت في أزقة ضيقة تفوح منها روائح المدينة العربية الوسيطية المسقوفة ، التي تمتزج فيها الآثار الفاطمية بالصليبية بالمملوكية ،

وتنتشر على جنباتها البيوت ، والدكاكين الصغيرة ، ويتجاور فيها الدير المسيحي مع التكية الإسلامية . وانتهى بي المسير إلى ساحة جامع السراي ، هناك التقطت أنفاسي في مقهى شعبي داخل بناء عتيق يديره صيداوي من أصل فلسطيني ، يعلق على جدران المقهى صوراً قديمة ، لأم كلثوم ، ومحمد عبد الوهاب ، وفريد ، وعبدالحليم ، وفيروز ، وصورا أخرى غيرها . طلبت من صاحب المقهى مشروبا ، واستأذنته في تفحص الصور ، فرحب بالأمر ، شدتني صورة وقفت أمامها طويلا ، كانت صورة جماعية لعائلة فلسطينية يقف أفرادها من الرجال والنساء والأطفال بأزيائهم المدينية الأنيقة ، وتظهر خلفهم القبة المذهبة لمسجد الصخرة . رمقني رجل في السبعين من عمره وهو يراني أطيل النظر في الصورة ، أو كأنه سمع لهجتي المغاربية ، فسألني عن جنسيتي ، حين أخبرته بأني مغربي ، أبدى سرورا مضيافا ودعاني إلى طاولته ، تجاذبنا الحديث عن المغرب ، ثم عن صيدا ولبنان وفلسطين ، وحين أخبرته أني زرتها مرتين ، وصلت فيهما إلى القدس ؛ اهتزت عصاه في يديه ، واغرورقت عيناه . حتى ندمت أني أخبرته . . استرسل حديثنا حتى ختمه الشيخ بكلام عن الثورة الفلسطينية لا أظنني سمعت مثله من قبل ، «**فحتى يكسر الإسرائيليون روح الثورة رتبوا مؤامرة خروجها من الأردن ، فلما راحت إلى بيروت وجدوها قد صارت أقوى ، وأكثر شراسة ، فعملوا على إخراجها بعيدا في المرة الثانية ، وهناك انكسرت ، لكن الانتفاضة في الداخل الفلسطيني فاجأتهم وبعثرت أوراقهم حين واجههم جيلٌ ناشئ غير منكسر ، فحاولوا تهشيم**

عظامه وتكسير روحه لكنهم فشلوا ، عندئذ سمحوا بدخولها في شكل سلطة وطنية ، حتى يكسر المنكسرون أرواحَ غير المنكسرين ، فكان لهم أخيراً ما أرادوا ، وانكسرت القضية» .

صمت الشيخ ، وصمتُّ أنا . . قمت من مجلسي ، ودَّعته ، وانصرفتُ أستكملُ جولتي بين الأزقة العتيقة ، التي كانت تشهد بدورها عمليات ترميم لواجهات البيوت ، وسقوف الأزقة الحجرية التي تصنع قناطر نصف مقوسة بين الجدار والجدار ، خلال ذلك استوقفتني لوحة تؤرخ لمكانها الذي شهِد عمليةً فدائيةً قامت بها إحدى فصائل المقاومة إبان الاجتياح الإسرائيلي سنة ١٩٨٢ ، بعد قراءتها تغير انطباعي عن الأمكنة ، كأنما صرت أرى أطياف الفدائيين تظهر في زاوية وتختفي في أخرى .

تابعت السير وصولا إلى المسجد العمري الكبير ، ثم قصر الأمير فخر الدين ، ومن بعده متحف يعود إلى بيت آل عودة ، يؤرخ لصناعة الصابون في صيدا القديمة . لأجد نفسي أسير في طريق تجاري ، عدتُ منه إلى نقطة انطلاقي ، من المكان الذي تركت فيه أبا وليد .

كسرنا الجوعَ معاً بأكلة فلافل ، واستأنفنا الرحلة نحو صور . على الطريق السريع الذي يحمل اسم الإمام موسى الصدر ، وتنتشر على جانبيه بالتناوب أعلام لبنان ، والأعلام الصفراء لحزب الله ، والخضراء لحركة أمل . في منتصف الطريق توقفنا قليلا عند مسجد ومقام يؤمه الشيعة ، يطل من مرتفع على حقول الموز التي تمتد على ساحل البحر ، وهو مقام ينسب إلى نبي اسمه ساري .

بعد نصف ساعة كنا نصل إلى صور ، اخترقنا الشارع الرئيسي الذي يعبر في وسط المدينة المزدحم بالسيارات والباعة والأكشاك ، وعند منعطف غربي يقع الموقع الأثري للمدينة ، ولجناه من بوابة حراسة ، وسرنا في ممر مرصوص بحجارة مستطيلة ، تمتد على جانبيه مقابر من نواويس مزخرفة ، تنتهي عند قوس نصر روماني ، يفضي المرور من تحته إلى أطلال من حجارة ضخمة يرتفع بعضها فوق بعض ، مؤلفة ممرا من القناطر الحجرية التي تقود إلى مدرج شاهق ، تنتصب عليه ثمانية أعمدة من مرمر متوجةٍ بزخارف . صعدته بأنفاس متقطعة ، واستدعيت من مخيلتي مشهداً سباقاتِ الخيل والعربات التي كان يتابعها الجمهور من فوق هذا المدرج .

مكثت في المكان ساعة ، وفيه بضعة سياح أجانب ، ومجموعات من أولاد المدارس ، ينثرون بهجة سياحتهم بين الأحجار الضخمة ، وفوق عشب الباحة الواسعة ، وغير بعيد كانت نساء تنشرن غسيلا على شرفات بيوت قريبة . . ومن فوق كانت السماء في صفائها النهاري ترقب تاريخ الزمن وهو يتشظى في المكان .

غادرنا الموقع الأثري ، عائدين إلى الطريق المؤدي نحو مخرج المدينة الجنوبي ، في اتجاه الناقورة . لم نبتعد في الطريق طويلا حتى أوقفنا حاجز للجيش اللبناني ، أطل علينا الجندي من وراء نافذة السيارة ، وطلب فحص الهوية ، وهي المرة الأولى التي يطلب منا شيء كهذا أمام الحواجز ، حيَّاهُ أبو وليد ، وأخبره أني مغربي ، فرد الجندي أنه غير مسموح لغير اللبنانيين أن يعبروا إلا بترخيص مسبق من إدارة الجيش ، وأنه علينا العودة إلى صيدا للحصول على

الترخيص المطلوب ، هنا استعمل أبو وليد مهاراته الكلامية ، مستدرجا الجندي إلى حديث عن فرقته التي كان فيها ، وأسماء الضباط الذين يعرفهم ، فما كان من الجندي إلأ أن سمح لنا بالمرور ، ناصحا أبا وليد أن يجرب حظه مع عناصر الحاجز القادم الذي يتبع المخابرات .

تابعنا السير ، على طريق ساحلي ، ينبسط حينا حتى لا يظل بينه وبين صخور الشاطئ إلا الحاجز الفولاذي ، ويرتفع حينا أخر ، فيشقُّ حوافَّ تلالٍ يبدو منها الأفق البحري ممتداً إلى نهاياته . هنا واحد من أجمل شواطئ لبنان وأصفاها .

أمام ثكنة لقوات الأمم المتحدة العاملة في لبنان (اليونيفيل) ، أشرت على أبي وليد بتغيير الاتجاه ، فعدنا من الطريق نفسه ، إلى بلدة راس العين ، ومنها نحو بلدة أنصار على طريق بين تلال تنتشر عليها مزارع الليمون والموز . وبيوت بلدات صغيرة هنا وهناك ، وأما اللافت فهو ما كنت أشاهده من قصور فخمة على سفوح تلك التلال وفوق قممها ، قصور تعود لأبناء البلدات المغتربين في الخارج .

وصلنا النبطية ، تجولنا سريعا في شارعها الرئيس ، ومنه انعطفنا نحو ساحة ينتصب في وسطها تمثال للمخترع وعبقري الكهرباء ، حسن كامل الصباح (١٨٩٤-١٩٣٥) الذي نبغ طفلا في بلدته النبطية ، ودرَس ودرَّس في الجامعة الأمريكية ببيروت ، وذاع صيتاً في الولايات المتحدة الأمريكية باكتشافاته واختراعاته في مجالات الكهرباء والطاقة والضوء .

في مطعم شعبي قريب كانت وليمتنا (فراكة جنوبية) ، وهي

أكلة مكونة من هبرة لحم خروف تفرم مع بصل وكمون ، وقرفة ، وورد جوري ، وحبق ، ونعنع ، وزيت زيتون ، ثم تعجن مع برغل متبل بالكمون ، والفلفل ، والقرنفل ، وتقدم نيئة في شكل أقراص صغيرة مع خبز ، وزيت زيتون ، وفجل .

من النبطية إلى كفر رمان ، ثم حبوش ، كانت الارتفاع يزيد ، وكانت شمس ما بعد العصر تهوي بطيئة في الأفق الغربي ، فيُرى من فوق التلال انكسارُ ضوئها على صفحة البحر ، والتماعُه على القباب المُذَهَّبَة للحسينيات ، والأهلة النحاسية للمساجد ، والصُّلْبان المعتلية منائر الكنائس ؛ فتستحيل بفيضه الغيماتُ المتماوجة على قمم الهضاب إلى مُلاءة شفيفة ، تبدو من تحتها البلداتُ المتناثرة مثل صِبْيَةٍ ينصتون لحكاية جنوبية قبل الذهاب في النوم .

من حبوش إلى دير الزهراني على طريق النبطية/ صيدا الذي يتصل بالطريق الساحلي كانت العودة إلى بيروت ، بعد يوم مديد بدا كأنه أكثر من يوم واحد ، وبدت معه ملامحُ المدينة التي سأعود إليها ، والشقةُ التي سأنام في غرفة من غرفها ؛ ملامح غائرة تنتمي إلى زمن بعيد .

عند باب العمارة ودعت أبا وليد بعناق حار ، وشكرته على رفقته التي كانت ماتعة ومفيدة . وتواعدنا على لقاء بعد غد في رحلة الإياب إلى المطار .

اليوم السابع / الأربعاء ١٩ أبريل

٣٢- من المتن إلى الشمال

دخلت الشقة ، لم يكن بها أحد ، فتحت باب الغرفة لأجد تحتها قطعة ورق ، كانت رسالة من نجوى ، وهي صديقة لبنانية تعرفت إليها خلال زيارة عمل قامت به في المغرب ، تركتْ على الورقة رقمَ هاتفها وموعداً للقاء في الغد .

في الصباح الموالي استيقظت متأخرا ، بذهن ممتلئ بصور ومشاهدات يوم أمس ، مشاهدات كثيفة ، متلاحقة ، غامرة ، فائرة ، نافرة ، ساحرة ، لا يمكن أخذ مسافة منها لتفكيك عناصرها ، أو الاقتراب منها كثيرا لاشتمام كنهها . تأتيك من نظرات الناس وسحناتهم ، وتضاريس التراب والشجر والزهر في الروابي ، وهندسة الشوارع والحارات ، وشهود الأمكنة على مصارع الرجال المقاتلين .

ذاك الجنوب! جنوب الخضرة ، وأريج الليمون ، وملح البحر ، وريح الجبل ، وروح الزهر ، ورائحة البارود ، وراية المهدي ، وصليب المسيح ، وعمامة الولي الفقيه ، وحنين المغترب مشتعلا في ذاكرة الأرصفة والجدران وقرميد البيوت . . ذاك الجنوب .

متثاقلا قمت إلى موعدي بمقهى الكوستا ، أين وجدت نجوى في انتظاري ، أخذنا فطورا سريعا ، وتصفحت جرائد البلد ، ووجوه

زوار المقهى من بعض شعراء لبنان وروائييه ، بعدها انطلقتُ مع صديقتي التي دعتني إلى بيت عائلتها ببلدة عكار العتيقة الواقعة شمالي لبنان .

من بيروت في اتجاه المتن ، على طريق سريع يعبر بلدات محافظة الجبل ، حيث يمكن للمرء أن يشاهد من قريب الطبيعة التي جعلت لبنان وإنسانه على ما هما عليه ، فكأنك ترى في وعورتها اللطيفة المتخلقة من لقاء الجبل والغابة سرَّ قدرة الإنسان في هذه الأرض على اجتراح الحلول أمام العوائق ، وترميم الكسور وتدوير الزوايا . وابتداع طرق في العيش رشيقة وذكية ، حتى حين تكون الظروفُ معاكسةً أومعاديةً ، هكذا يبدو إنسان هذه الأرض ، «فإذا ألقي في البحر طلع منه وفي يديه سمكتان!!»

بعد مسير ساعة وصلنا إلى بكفيًا . بلدةٌ مزهرة وجوٌّ لطيف ، وأشجار صنوبر وسرو وغار وشُوح ، ونصرانية عربية دافقة بالإيمان تُرَى في حَجَر الكنائس وأجراسها ، وتُسمع في ترانيم فيروز التي كانت تصدر من قارئة القرص الموسيقي في مسجلة السيارة .

لم تكن رحلتنا نحو الشمال مرسومة المسار سلفاً ، في الوقت نفسه لم أكن لأفوت هذه الفرصة كيف أرضي غرورا قديما كان يُسوِّغ لي الادِّعاء بأني الفيروزي رقم واحد في العالم ، حدثتُ نجوى عن هذه الرغبة العميقة فاستجابت لطلبي بالبحث عن ضيعة اسمها حملايا . وسرني أنها لم تكن بعيدة عن بكفيا إلا ببضعة كيلومترات .

حملايا الوادعة المستلقية على سفح تلة من تلال جبل صنين ، المتطيبة بشفاعة قديستها العجائبية (رفقا) . تشعرك أنك

تقف في القلب من تراب هذا البلد ، وتسمعك على أثير هوائها صوتَ فيروز في صيغته البكر ، قادما من الوهاد القريبة ، تستخلصه أذناك صافياً من هدير (البوسطة) المنطلقة نحو بلدة تنورين . هكذا ارتسم خط رحلتنا الذي دلّنا عليه زياد بالأغنية التي أبدعها ، وأدهش بها والدَه عاصي ، فباعه حقوقها بخمسمائة ليرة ، لتغنيها فيروز على مسرح الأولمبيا بباريس في العام ١٩٧٩ . فيروز التي تنفلت من وجهها الكتوم ابتسامةُ (ولدنة أو حياء) في اللحظة التي تغني (هذا اللي هو ومرتو . . عبق وداخت مرتو . .) .

من حملايا إلى تنورين ، كان علينا أن نُيَمِّم غربا في اتجاه جونية ، ومنها على الطريق السريع نحو الشمال ، وكان على سيارة نجوى أن تصعد التلال وتنزل المنحدرات ، تخرجَ من بلدة ، وتدخلَ أخرى ، جمالٌ من خلفه جمال ، ومن بين يديه جمال .

عند البترون صارت وجهتنا شرقية ، نحو بيت شلالا وصولا إلى دوما . دوما التي تسحر الداخل إليها بعمارة أبنيتها القديمة المجددة ، بدت خالية دون أن تبدو عليها علامات الإهمال ، فهي ككثير من الضيعات والبلدات الصغيرة تكاد تكون فارغة من سكانها ، فلا يظهرون فيها إلا في عطلة نهاية الأسبوع ، أو خلال عطلة الصيف ، لكون غالبيتهم تقيم وتعمل في العاصمة بيروت ، أو في مراكز المحافظات ، ولعل هذا ما يفسر الاكتضاض الذي يخنق المدن الكبرى مقابل الرحابة التي تطبع البلدات الصغيرة .

أخذنا استراحة في مطعم صغير ، يقع في بيت قديم مرمم ، مشرف على دَوَّارٍ تتوسطه حديقة صغيرة . متأملا المكان ؛ خايلني إشراق صوفي مِن مشهدِ مغربيٍّ أربعيني من القرن الحادي

والعشرين ، يزدرد بيتزا إيطالية حضرها طباخ سوري ، ويحتسي رفقة صديقة لبنانية من عكّار قهوةً عربية ، قدمتها نادلة إثيوبية ، على طاولة بجوار مرقد كاهن فينيقي لإلهين وثنيين وسط حديقة زُرِعَتْ نباتات ووروداً ، تتحلق حول شجرة سرو .

بعد جولةً بين المعالم القريبة ، الكنيسةُ ، والسوق القديم ، ومبنى بسيط كان دارا للسينما تعود إلى خمسينيات القرن الماضي ؛ استكملنا الرحلة نحو تَنُّورِين التي وصلناها بعد نصف ساعة .

هضاب ، وأجراف ، وقمم منكسرة تغطيها أشجار السنديان ، والصنوبر ، والبلوط ، والقيقب ، والحور ، وتمتد في فسحات بين سفوحها مزارعُ التفاح والأشجار المثمرة . طبيعةٌ تخلب اللُّبَّ ، وبقايا أقوام مضوا من فينيقيين ورومان ، ونُسّاك منذ فجر المسيحية وجدوا هنا ملاذ رهبانيتهم بين الوديان وعلى الأعالي وداخل المغاور . ونبع ماء صاف يحفر بين التلال مجراه الخالد .

في اتجاه بلعا كانت الطريق تدعونا إلى الصعود ، وكان الارتفاع يزيد ، والغمام يصير أقرب ، فأكملنا فيها واصلين إلى (بالوع بلعا) أين يهوي الماء شلالا بين فجوتين في الصخر ، فيسقي رذاذُه عليقا ونباتات متسلقة تكسو جوانب الجرف .

عدنا أدراجنا في اتجاه غابات أرز الربِّ ، عبورا من بلدة بْشَرِّي . الأرز الذي يضع الناظرَ إليه أمام امتحان للوعي غريب ومهيب . وعيُنا الذي سطَّحتُه وكَلَّسَتْه وسَحَقَتْه حياتُنا السريعة المتكررة اللاهثة يصير هنا أمام مشهد نبتة غضة طالعة من الأرض بإزاء معجزة كاملة الأركان ، تامة الأوصاف ، وأما حين يكون

المشهد لأرزة عمرها ثلاثة آلاف سنة فالصمت هو المنفذ الوحيد أمام احتمال الانخطاف من فتنة الشجرة الخجولة ، التي تأخذ من الدهر ما يلزمها من الوقت كي تنمو في عشر سنوات أو أكثر ، ولا تقنع بأقل من أربعين سنة كي تطرح أولى بذورها الوارثة .

عدنا نحو بشرِّي ، ومنها على مسلك وعر يتعرج نزولا إلى واد سحيق يجري في قاعه نهرٌ ، وتنهمر من حوافه شلالاتُ ماء . وادي قنوبين المقدس ، مهد المارونية الكاثوليكية ، الذي تنتشر فيه الأديرة والمحابس . زرنا منها أقدمها ، وهو دير مار أليشاع . الذي عاش فيه الرهبان حاملين إلاههم في قلوبهم ، بعد أن حفروه حفراً في قلب الصخر الأخدودي .

عدنا صعودا من المسلك الجبلي الضيق نحو طريق الإسفلت الذي يعبر بين قمم جبال كانت تشد على ثلوجها تحت شمس إبريلية غاربة ، في اتجاه إهْدِنْ ، البلدة المصيف لشمال لبنان ، بحكم وقوعها على هضاب غابوية تجعل مناخها معتدلا ولو في عز الصيف ، وهي لذلك بلدة سياحية بامتياز ، تحاكي بمقاهيها ، ومطاعمها ، وكنائسها القديمة بلدات الجنوب الفرنسي ، استشعرت هذا الشبه ونحن نتجول بين الشوارع وصولا إلى قلب البلدة ، حيث ساحة الميدان الشهيرة .

استأنفنا المسير نحو زغرتا على طريق من ثلاثين كيلومترا ، تتابع فيه السيارات في الاتجاهين . كأنما البلدتان وطنان لشعب واحد ، أو غرفتان في منزل مشترك ، زغرتا للإقامة والعمل والمبيت ، وإهدن للطعامة والفسحة والترويح .

عبورا من زغرتا ؛ أكملنا الرحلة حتى طرابلس ، التي دخلناها

من الجنوب الغربي ، واجتزنا وسطها ، مروراً فوق طريق يَسْقُف جزءاً من نهرها الذي تجري تحته المياه القادمة من الشرق ، تحديدا من الأخدود الصخري الذي كان يتراءى لنا بين فينة وأخرى من وقت خروجنا من الدير في وادي قنوبين . وهو نهر (قاديشا) ، نسبة للمغارة التي ينبثق منها ، وحين يبلغ طرابلسَ يصير اسمه نهر (أبو علي) ، وقد بدا لي من المعلومة التي أعطتنيها نجوى أنَّ ما يتغير في النهر حين يصل إلى هنا ، ليس الاسم فقط ، بل طبيعته التي تتحول من نهر إلى مجرى صرف صحي .

أقنعتُ نفسي قبل أن تقنعني رفيقة سفري ، أن ما أراه هو جزء صغير من هذه المدينة الكبرى ، التي ظلت تُنعت إلى وقت قريب بالفيحاء ، هو الجزء الفقير والكادح والمأزوم ، لكن توالي المشاهد الأولى أوقفني على استنتاج طريف ومؤلم في الآن ذاته ، فطيلة رحلتنا بين البلدات المسيحية ، كانت الشوارع نظيفة ، والبيوت متناسقة وجميلة ، والحدائق مزهرة ومرتبة ، فإذا عبرنا من بلدة مسلمة تصير الفوضى ظاهرة . والعشوائيةُ غالبة .

في طرابلس التي رأيت ، كان ينضاف إلى العشوائية في المكان كدحٌ على وجوه الناس وشراسة ، وحِدَّةٌ في عيونهم وغضب ، ربما تكوَّن انطباعي هذا من كون أنَّ أول ما عاينته كان سوق البسطات التي يبيع أصحابها الخضروات ، وخردوات البالة . غير أن الذي كان لافتا للنظر أكثر هو الآثار التي تحملها جدران البيوت ونوافذها . حدثت نجوى عن ذلك فأخبرتني أنها من مخلفات الاشتباكات المسلحة التي عرفتها المدينة بين مناصري الثورة السورية من سنيي طرابلس في منطقة باب التبَّانة ،

ومناصري الأسد من علوييها في منطقة جبل محسن ، حصل ذلك مرات عديدة آخرها في سنة ٢٠١٢ ، ليَتجدَّدَ العداءُ المستحكمُ بين الفريقين ، العداءُ الذي تعود جذوره إلى زمن الحرب الأهلية .

عند دوار التبانة توقفنا قليلا في انتظار أخت لنجوى سترافقنا إلى عكار ، حين وصلتْ أكملنا الطريق نحو عكار العتيقة ، بعد ساعة ونصف على طريق سريع ، يتفرع منه آخر جبلي ، وصلناها ليلاً يهدُّنا التعبُ ، ويقرصنا برد الأعالي ، ويفتك بأمعائنا الجوعُ .

كانت طاولة العشاء مجهزة بأصناف الأكل والسلطات في انتظار الضيوف ، وكان الترحيب بالقادم الغريب حارّاً ودافئا ، بعيون تتفحص سحنته ، وآذان تصغي للكنته الغريبة ، ومغربيته (الملبننة) التي يجيب بها عن الأسئلة الكثيرة .

تَلَتِ العشاءَ سهرةُ شاي وحديثٌ مع العم حمّود ، حول مدفأة المازوت التي لا يخلو منها بيت في هذه المنطقة الجبلية الباردة . تشعَّبَ الحديث عن تاريخ عكار ، ونسيجها الطائفي ، ولكنات أهلها التي تتغير بين ضيعة وأخرى ، ثم بين حارة وأخرى في الضيعة الواحدة . وعن طواحينها القديمة التي كانت ولم يتبقَّ من كثير منها غير الأطلال ، ومسجدها وتكيَّتها الأثريين ، وأخيراً عن حكايةِ الأمير فخر الدين ، الذي أقسم أن يعيد بناء دير القمر ثانية بعدما هدمها جيشٌ من عكار ، فأنشد متوعِّداً بالانتقام :

(وحياة عيسى وموسى وزمزم والنبي المختار
ما أعمرك يا دير إلا من حجر عكّار)

في هذا الحين عادت إلى ذهني صورة الأحجار الجميلة المائلة

إلى الصفرة التي كنتُ قد رأيتها في دير القمر .

قمنا للنوم بعد يوم كان من أطول أيام رحلتي مسافةً ، من داخل الغرفة التي أُفردت لي ، سمعتُ طرقا على الباب ، كان من الفتى الذي ظل صامتا طيلة العشاء وسهرة الشاي : «لالا شو تنام سنذهب لمتابعة ماتش الكورة . . سيبدأ بعد قليل» . قبلت دعوة الفتى ، وتبعته وهو يتسلل تحت أنظار جدَّته التي كانت في المطبخ .

في الخارج كانت الظلمة حالكة ، حتى لا يمكنك أن تتبين موضع قدمك ، هز روحي شعورُ حنينٍ قديم وأنا أسير مسترشدا بتنبيهات الفتى ، أخفي يدي في جيوبي من شدة الصقيع ، شعور بالليل البهيم ، اللَّيل الحقيقي الذي اختفى من حياتنا ، فلم نعد نعرفه إلا بما تخزِّنه ذاكرتنا من انطباعات قديمة عنه ، تعود إلى زمن الطفولة الأول ، حين كنا نقضي وقتا من عطلة المدرسة في البادية ، أوحين كانت الكهرباء تنقطع عن البيوت فيخرج الناس حاملين الشموع ، والمصابيح اليدوية . ويصير لأصواتهم نبرٌ يعرفون به بعضهم بعضا في ما يتبادلونه من نداءات أو تحايا ، فيكون لليل من ذلك ألفةٌ خاصةٌ تطمئن بها القلوب .

وصلت مع الفتى إلى كاراج كبير يوشك أن يمتلئ بزبائنه من شباب عشريني ، وفتية صغار في عمر فتاي ، وبينهم شيخان طاعنان ، يجلسون كجمهور أمام شاشة تلفاز كبيرة على كراسٍ مصفوفة على نحو ما يكون في ملاعب كرة القدم ، ومن لم يجد كرسيا اقتعد صندوقا أو ما اتفق له ، مثلما فعل فتى يحمل طبلة شرقية ، أو آخر إلى جانبه ، كان يضع قبعة غريبة ، وينفخ في زَمَّار .

أخذتُ موضعي بين الجمهور ، وحين لمحني أبو الفتى الذي كان شريكا في الفكرة مع ابنه ، قام ودعا الحضور لتحية الضيف ، تحية جماعية برجز محلّيٍّ . وطلب لي نارجيلة ومشروبا غازيا ، وهما تقومان مقام تذاكر الدخول ، ومنهما ربح صاحب الكراج .

كانت المباراة في كرة القدم بين فريق فرنسي ونظير له إسباني ، وعليهما انقسم الجمهور في تشجيعاته .

سأقول أنا المنقطع منذ عشرين سنة عن متابعة المباريات ، أني قضيت واحدة من أجمل الفرجات الكروية التي حصلت لي في حياتي ، فوجدتني أشجع الفريقين معا ، وأصفق للمراوغات ، وأهتف عاليا للأهداف .

حين انتهت المبارة ؛ أوصلني الفتى إلى باب غرفتي في بيت جده ، وانصرف ، فيما تسللت أنا تحت الفراش مشبعا باللّيل ، والصقيع الجبلي ، وألفةٍ نادرة في مكان ناءٍ ، تنبثق كضوء دافئ يأتي من زمان بعيد . . ونمت .

اليوم الثامن /الخميس ٢٠ أبريل

٣٣- اليوم الأخير

استيقظت باكرا خلاف عادتي ، على أصوات عصافير تصل من وراء النافذة ، فتحتُها فرأيت ما لم أر البارحة . لو كان هناك صباحٌ تلا فجر الخلق الأول بساعة ، لكان هذا الذي أرى الآن ، منظر تلال مترامية يتلألأ الندى على أوراق أشجارها ، ومملكة عصافير معلقة بسماء تتثائب منكشفة عما علق بها من غيم أمس ، وأجراف صخرية تطل على وهادٍ وأحراش .

شممت رائحة القهوة العربيةً التي فاحت في المكان ، فأسرعت بتغيير ملابسي وترتيب حقيبتي . على مائدة الفطور تزاحمت الأطباق ، حُمُّص ، وزيتون ، وزيت زيتون مع زعتر ، وطماطم ، وشنكليش ، وسودة نية ، وشاي أسود مع خبز منزلي . أفطرت مع العائلة ، وأكملت مع العم حمّود ما تبقى من حديث أمس ودعاباته ، واتفقنا أنه والمغاربة يعودون إلى نفس النسب ، بعدما شرحتُ الفرق بين علويي المغرب وعلويي الشام .

ودَّعت العائلة ، ووعدتُ فتى كرة القدم بلقاء آخر أناصر فيه فريقَه الفرنسي .

كانت العودة إلى طرابلس من نفس طريق أمس ، الذي قطعناه خلال ساعة ونصف ، دخلناها من شارع رفيق الحريري ، الذي تملأ صوره الأمكنة والواجهات ، إلى جانب صور ابنه الذي

خلفه ، تنافسهما لافتات عليها صور زعيم بيت آل ميقاتي ، ودون أن يخلو المشهد من لافتات لصورة الرئيس التركي ، الذي يحظى هنا بشعبية لا تضاهيها إلا شعبية المرشد الإيراني في النقطة الجغرافية المقابلة من الخريطة .

بحثنا كي نعثر على موقف نصفُّ فيه السيارة لنتجول راجِلَين ، وكذلك كان ، قريبا من برج الساعة الحَميدية ، الذي ينتصب شاهقا على خمسة طوابق ، بطرازه العثماني الحديث . ثم انطلقنا نحو المدينة العتيقة ، بدءا من الجامع المنصوري الكبير ، الذي يعود تأسيسه إلى زمن السلطان المملوكي الأشرف خليل بن منصور قلاوون في القرن السابع الهجري ، واقفاً تحت صومعته ، بأقواسها الثلاثة المُرَوَّسَة التي تتوسط الطابق الثالث ؛ وجدتني أُخمِّنُ أنها إن لم تكن مرممة معادة البناء حديثا ، فسأكون قد وجدت إفادة عن سر الأقواس الثلاثة المتجاورة التي كنت أعثر عليها في واجهات كثير من المباني التي زرتها خلال رحلتي ، والتي كانت تتكرر في كثير من البيوت التراثية البيروتية ، وعلى واجهة البيت المفرد القريب من حفريات مدينة جبيل .

سرنا في المدينة القديمة ، بين الأزقة الضيقة ، حيث تنتشر دكاكين بيع التذكارات والحلي والسجاد ، وصولا إلى خان الصابون ، الذي دلَّتنا عليه روائحُ الصابون العَطِرِ الفائحة من متاجره . والصابون التقليدي هنا سيّد الصناعات التراثية ، إلى جانب الحلويات الطرابلسية ، والمشغولات الزجاجية .

محطتنا الثانية كانت سوق الحراج ، الذي قادنا إليه شاب ، كان قد انتبه إلينا بحس الدليل السياحي ، فاستسلمنا لإلحاحه

اللطيف ، ورافقناه إلى المقهى الذي يديره داخل السوق . مقهى صغير ، في ركن من أركان الفناء الذي يتوسط السوق القائم على أعمدة ضخمة ، من ضمنها عمودان ضخمان من الغرانيت الفرعوني المستقدم من مصر ، عند دليلنا طلبنا بوظة عربية ، وهي المرة الأولى التي أتذوقها ، سألت النادل عنها فشرح لي أنها تصنع من حليب يُحَلَّى بسكر ، ثم يُطَيَّبُ بمدقوق صمغ المستكة ، ويُمْزَج بنشا أو بمدقوق نبات السَّحْلَب ، ثم يُزَيَّنُ أخيراً بجريش الفستق .

كانت الدقائق تمر سريعة بسبب شعوري بدنوّ ساعة المغادرة ، استعجلتُ نجوى كي نعود إلى موضع السيارة ، ومن داخلها ودَّعتُ طرابلس ، ملقياً نظرة أخيرة على قلعتها التراثية المترائية من بعيد ، ثم انطلقنا في اتجاه مخرج المدينة على الطريق السريع ، الواصل إلى البترون ، ومنها إلى بيروت .

٣٤- في وداع بيروت

بعد ساعة ونصف كنا ندخل الحمرا ، وصولا عند شجرة الجميزة المعمرة التي تظلل بفروعها كاملَ الطريقَ ، داهمني شعور الفاقد المفتقِد العائدِ بعد زمن مديد ، وكأنه لم يكن مجرد نهار ، وليلة ، وضحى .

خلال ساعات لن أكون هنا ، بعد أن كنت هنا خلال أيام أستشعر الآن أنها مرت مثل ساعات .

بيروت ، الضاحية ، زكريت ، جعيتا ، حريصا ، جبيل ، دير القمر ، بيت الدين ، بيروت ، شتورة ، بعلبك ، عنجر ، بيروت ، صيدا ، صور ، الناقورة ، النبطية ، بيروت ، بكفيا ، حملايا ، دوما ،

تنورين ، بلعا ، بشري ، قنوبين ، إهدن ، زغرتا ، طرابلس ، عكار ، بيروت . . عبر هذا المسار عانقت وطنا صغيرا ، جميلا ، مشاكسا ، مرعب الحقائق ، ومدهش المجازات ، وطن التيارات ، تيارات البحر والهواء والسياسة والكهرباء .

وطن الأخَرين ، الأولين والآخِرين ، قاسياً ، وحانياً ، ظالماً ومظلوماً ، يأتونه طوعاً ، أو كَرهاً ، أو طمعاً أَو هلعاً . . كنعانيون . آلهة مُجنّحة ، وملكات من رخام . . غزاة ، فراعنة وآشوريون ، وفرس ، ويونان ، ورومان ، وعرب ، وصليبيون ، وعثمانيون ، وإنجليز وفرنسيون . . نازحون أرمن وأكراد ، وفلسطينيون وسوريون مقيمون ومنفيون . . مهاجرون ، وعمال أسيويون ، وخادمات في البيوت ، أسيويات وإفريقيات .

وطن التحفة الموعودة بالفرح ، والألم ، والخلود .

أفقت من شرودي ، رشفت ما تبقى في الفنجان الأخير في الكوستا مع نجوى ، وقمت لتوديعها ، سرت نحو البيت ، صعدت الغرفة ، وأعددت حقائبي ، ودعت من وجدت في الشقة من الأصدقاء ، وتجهزت لانتظار أبي وليد الذي سيقلني إلى المطار .

حين وصل أبو وليد كان في الوقت متسع بعد ، فطلبت منه أن نعبر أمام البحر قبل أن نسلك في طريق المطار .

من وراء زجاج نافذة السيارة ودعت بيروت ، بيروت التي وضع صخر الزمن نقطتين على تائها المفتوحة على البحر .

مُطِلاً على الروشة ، وبمشهد من شمس غاربة ، وضعت قبلتين على جبين المرأة/المدينة ، هذه الطالعة من الجرح ، القابضة على جمر الفرح ، وقلت : سلاما بيروت ، سلاما .

./ . انتهى ./ .

قــائمـة

اليوم الثالث. السبت ١٥ أبريل

اليوم الرابع. الأحد ١٦ أبريل

اليوم الخامس. الاثنين ١٧ أبريل

اليوم السادس. الثلاثاء ١٨ أبريل



طبق الغموض

أيام في لبنان

عبد الله صديق

DAYS IN LEBANON

هذه يوميات شاعر في رحلة سريعة إلى لبنان، ليست سياحية، مع أن تقنيات السائح وفضوله يسهان سطور هذه اليوميات، ويقفزان من بين السطور، ليفضحا رغبة عميقة في استكشاف الأمكنة، وقد طرقت سمع صاحب اليوميات، وكانت حافزا للقيام بالرحلة. فالكاتب وهو شاعر وأديب من المغرب، يبدو مسحوراً، بالأسماء التي سيجد لها صوراً، ومجسمات يقف عليها خلال تجواله اليومي في بيروت وصيدا وطرابلس وعكار وبعلبك، وغيرها من المدن والبلدات التي زارها. فلبنان بالنسبة إليه فضاء جمالي وإنساني وتاريخي لطالما حضر في القصيدة، والأغنية، والفيلم، وحضر في الحرب الأهلية التي غذت مخيلات الأدباء العرب بصور عن جحيم الاقتتال الأهلي، والصراع الفكري والطائفي. والاجتياح الإسرائيلي الذي سكن ذاكرة العرب، بوقائعه البطولية والمأسوية معاً، سوف يكون الوقوف على آثاره حدثاً استثنائياً للكاتب. فالمخيم الفلسطيني بالنسبة إلى صاحب اليوميات وكذا مخيم اللجوء السوري، ومآسي الهروب من الموت في سوريا إلى تحدي المذلة في لبنان، لا يغيبان وراء شغف الكاتب في زيارة مغارة جعيتا، أو قصر بيت الدين، أو غيرها من المعالم الطبيعية الخلابة والمعمارية ذات التاريخ.

يوميات تتحفنا بصور لافتة صاغتها لغة موحية ومؤثرة، والتقاطات ذكية ومعبرة، لرحلة جرت في وقت جد قصير، ولكنه حافل بالصور واللحظات التي تشع منها، أيضاً، معاني الصداقة وجمال اللقاء بين قادم من المغرب ومقيمين في بلاد الأرز ■

ارتياد الآفاق

ISBN: 978-614-419-859-9



